# غضب الشباب

كمال السيد

دار النبلاء

# غضب الشباب

كمال السيد

# غضب الشباب

قصة ..

دار النبلاء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار النبلاء

بيروت - لبنان - حارة حريك: شارع القسيس خلف البلدية . تلفاكس : ٠١/٥٤١٩٣٠

# في البدء

لكل كتاب قصّة بعضه عادي وآخر فيه اثارة.. فالكتاب فكرة ويراع وانتشار في النور، واشتهار وانزواء.. وفشل ونجاح.. ولهذا الكتاب حكاية:

كنت على وشك أن أغادر المطار عندما حدثت ضوضاء واتجه المسافرون الى الباب الرئيسية.. حدث كل شيء في لحظات عندما هتف أحدهم: ربّما تكون قنبلة موقوتة.

استحالت الرزمة الملفوفة بغير اهتمام الى شبح مخيف وضعت حقيبتي جانباً وجلست أرقب من بعيد ما يجري جرت اتصالات وحضر خبير في المتفجرات.. كان رجلاً كهلاً ظلّ عدة دقائق يراقب من بعيد ثم تقدّم بشجاعة.. وحبس الجميع أنفاسهم، فتحها ولم تكن سوى أوراق جمعت داخل محفظة ورقية سميكة.

لم تكن توجد أية علامة تدلّ على صاحبها... لا اسم ولا عنوان... وكان نوع الورق يدلّ على قدمه وتنقّله.

كان من المتوقع أن تأخذ طريقها الى المهملات.. سرّا

شدّني اليها تقدمت من المسؤول واعلنت استعدادي للاحتفاظ بها واعادتها لصاحبها فيما لو جاء يبحث عنها.

سجّلت عنواني ورقم الهاتف واحتفظ بهما في مكان خاص..

استغرقت في قراءة الأوراق ساعات المساء الأولى وبالرغم من الحذف والشطب والاعادة فقد كنت أواصل القراءة دونما صعوبة ثم لأعيدها رزمة من جديد..

ومرّ عام ولم يتصل بي أحد.. وأصبح ماجسي الوحيد كيف أعيدها الى صاحبها، وكانت فكرة طبعه ونشره الوسيلة الوحيدة لذلك..

لقد قمت بعدّة اجراءات قبل طبعه.. هي اصلاح الاخطاء في الاملاء والاعراب، كما استعضت عن الحروف التي ترمز الى أشخاص بأسماء متخيّلة فمثلاً س = سوسن، م = ماهر.. وهكذا.

كما ورد اسم إحدى المدن العربية.. ارتأيت حذفه ذلك انني وجدت ما ورد من مشكلات واحداث يكاد يشمل رقعة أوسع وعلى امتداد الوطن العربي.

وها أنا أعيد تلك الأوراق الى صاحبها.. مع الاعتزاز.. والاعتذار أيضاً...

# 1

غيوم مكتئبة، تثقل السماء، وأشجار واقفة منذ سنين بعيدة تراقب بصمت مايجري حولها... ابنية قديمة سقطت، ونهضت مكانها عمارات جديدة، وأشجار هزلت، ذبلت.. ونبتت الىٰ جانبها فسائل زاهية الخضرة، والمياه ما تزال تتدافع في طريقها.

وجاء الخريف هذا العام مبكراً، وراحت زوبعة تثير بقايا غبار في الشارع الممتد الىٰ قلب المدينة.

جلس ينتظر الأتوبيس، وراح يتصفح كتاباً من الحجم الجيبي يفضله ربما لحجمه فقط... لم يستطع التركيز لأنَّ شذىٰ الفتاة التي جلست الىٰ جانبه ايقظ كل خلايا الشم في جسده الممتلىء..

حتىٰ عينيه تحاولان النظر، ولكن قوّة خفيّة لا يعرف

مصدرها كانت تجبره علىٰ مواصلة التحديق في حروف الكتاب.. ومع كل هذا التحديق فيما يشبه الفراغ، كان يشعر إنّ كيانه قد أصبح منجذباً باتجاه نقطة تتركز الىٰ جانبه.. خفق قلبه بالرغم منه، وبدأت أفكاره تتشوش كراعية تبعثرت أغنامها في الوادي، وفوجيء بصوت دافيء يخاطبه:

ـ عفواً.. هل لك ان تتفضل بتذكرة.

أربكته المفاجأة ونمّت عنه حركات توحي بأنّه لم يكن يقرأ أبداً، وإن كان يحدّق في كتابه الصغير.

رمقها بطرف عينه وهو يناولها التذكرة، ويمتنع عن قبض ثمنها شكرته بابتسامة فيها قدرٌ من اللياقة.

أطبق كتابه ونهض ليستقل الأتوبيس، الذي توقف لحظات قبل أن يستأنف سيره باتجاه قلب المدينة... راح يخالسها نظرات متلصصة.. كانت وسيمة بالرغم من الأصباغ التي جعلت منها لوحة زيتية منفرّة..

حاول أن يقرّر للمرّة الألف عن هدف محدّد.. لقد قال لأمه بانه ذاهب الىٰ سوق الكتب لشراء كتاب مدرسي، وها هي تخامره فكرة في التوجه الىٰ المتنزّه.. ثم يعدل

عنها بالذهاب الىٰ الميدان الكبير!

ومع ذلك فقد أراد أن يغادر الاتوبيس في المحطة التالية.. ومثل برقة خاطفة خطرت في باله فكرة الذهاب الىٰ السينما.. ولكن عندما رأىٰ لافتة الفلم شطب علىٰ قراره متأففا، لأن الفلم المعروض كان كوميديا، وقد شاهده ولم يضحك مرّة واحدة بالرغم من دويّ الضاحكين والضاحكات، فغادر السينما ذلك المساء وسط عاصفة من الضحك! وفي تلك الليلة داهمه شعور مدمّر بالغربة.

اهتزّ جسمه واندفع الىٰ الامام، لأن سائق الاتوبيس ضغط علىٰ الكابح بقوّة، وحانت منه التفاته فرأىٰ فتاة مذعورة تعبر الشارع.

شكر في قلبه السائق الذي أعاد الىٰ كيانه حالة من الانتظام والاستقرار، بعد أن فرّت هواجسه وأفكاره بعيداً لا يدري الىٰ أين!

غادر الاتوبيس بمجرّد أن وقعت عيناه علىٰ رصيف ظليل، الشوارع طويلة ممتدة ومتشعبة، مكتظة بالعابرين، ولقد كان من المؤكد له وهو يتصفح الوجوه المختلفة، أن

الشبّان على الأقل كانوا هائمين على وجوههم يبحثون ودون وضوح عن شيء لا يعرفون أين، وليس صعباً أن يكتشف المرء ذلك التيه في عيونهم.

قادته قدماه الى شارع شبه مقفر ومرّ من أمام مسجد مقفل الابواب... خفق قلبه للمسجد الابيض الصغير الذي تستقر مشاهده في مكان ما من الذاكرة.. وشعر بموجة طاغية من الرغبة في البكاء..

رغبة تتأجج في أعماقه للعودة الى أيام الطفولة البريئة عندما كان يلج المسجد في الضحى من كل يوم، فتغمره نشوة غريبة وهو يقرأ القرآن مستمتعاً بمساقط الضوء الملوّنة حيث يتعمد الجلوس قرب النافذة المؤلفة من تشكيلة أخاذة من الزجاج الملوّن.

وجد نفسه يخطو الخطوات الأولى في متنزّه المدينة الكبير.. وحيداً كان يجوس الممرّات المرصوفة التي تحفّها خضرة العشب الزاهية.

وقف قرب النافورات التي كانت تقذف بالمياه الى السماء فترتد الى الحوض، فتحدث تلك الوشوشة الساحرة لكأن الحياة تحتفل في هذا المكان.

تعمد الوقوف في الجهة التي يتساقط فيها رذاذ المياه، رغبة ما تدفعه الىٰ ذلك.. نداء خفي يدعوه لأن يتطهّر «... يغتسل من اثم الليلة الفائتة».

عندما جلس علىٰ أحد المقاعد في ظل شجرة كالبتوس، لم يكن يصدّق أن تجلس الىٰ جانبه وكاد الأمر يبدو عادياً لو لم يلفحه شذى العطر.. نفس العطر الذي ملأكيانه وهو جالس ينتظر الاتوبيس!

التفت اليها فرآها تبتسم له مشجعة، ارتبك ولم يعرف ماذا عليه أن يفعل؟!

قالت:

ـ ماذا حصل هل أنا مخيفة الىٰ هذا الحدّ؟!

اقتربت أكثر وأردفت:

ـ ألا تريد أن تعرّف نفسك؟

قال مبهور الانفاس:

ـ ثامر

ـ وأنا سوسن

أخرجت من حقيبتها ورقة وكتبت عليها بضعة أرقام قائلة:

ـ هذا رقم التلفون.. تستطيع الاتصال بي مساءً.. أما الآن فاتركك لأذهب الىٰ المدرسة.

ـ أنت طالبة؟

ـ في السنة الأخيرة من الثانوية.. هل ترافقني الىٰ المدرسة؟

نهضت، ونهض في نفس اللحظة، هناك قوّة هائلة... قوّة هائلة للحب في مقابل جهل في اكتشاف طريقة التعبير عنها.

قال متشجعاً وهو يكاد يلامسها.

ـ نتمشىٰ قليلاً.

ـ بل كثيراً.

ـ نختار شارعاً جميلاً.

ـ بل طويلاً.. طويلاً بلا نهاية.

لم يكن غبياً أبداً؛ عرف ان ما شدّ سوسن اليه هو عيناه الخضراوان، وتسريحة شعره المتموج كبحيرة رائقة، ولكن هل يكفي هذا لأن يجعل هذه الفتاة تتعقبه كل هذه المسافات، وتطارد خطواته الضائعة؟!

وصلا قريباً من ثانوية «الأمل» للبنات ووقعت عيناه

علىٰ فتاة تلقي برأسها علىٰ كتف صديقتها.. كانت تبحث لا شعورياً عن ملاذ يمنحها السكينة والسلام.

استدار عائداً فيما كانت سوسن تبتسم منتشية وهي تلوّح له.

❀ ❀ ❀

# 2

بدأ المطر ينقر النوافذ، وكان ثامر يعود الىٰ منزله متثاقل الخطى ينظر الىٰ العابرين الذين يسرعون الخطى، وكادت الشوارع تقفر من المارّة.

قطع المسافة التي تمتد الىٰ أكثر من ثلاثمئة خطوة ماشياً، وكان المطر يغسل بهدوء رأسه، وقطرات باردة تتساقط من أرنبة أنفه، وقشعريرة تسري في جسمه... ليس بسبب برودة الجوّ بقدر ما خامره من طوفان من المشاعر تحلّق به بعيداً الىٰ عوالم غامضة مليئة بالشفافية.

كان ذهنه ما يزال مكهرباً منذ لقاء سوسن وفي كل مرّة كان يتحسس الورقة الصغيرة ذات الأرقام التي بدت له شيئاً فائق الأهمّية.

دلف الىٰ باحة المنزل وغسل وجهه بالرغم من

المطر! كانت أمّه تراقبه من وراء زجاج النافذة المضيئة بنظرات فيها شفقة وحزن.

لم تشأ تعنيفه، فقد أدركت ما يموج في أعماق ولدها البكر الذي خشن صوته كثيراً، وكثر انزوائه، وتضاعفت رحلاته خارج المنزل. علىٰ مائدة العشاء جلس ثامر ينظر الىٰ الصحون عرف أن أباه لن يعود هذه الليلة أيضاً، فشعر بقدر من الراحة، لشدّما ما يخشىٰ نظرات أبيه أنها تكاد تنفذ في اعماقه الحائرة.

كان الصمت يهيمن علىٰ المكان ما خلا صوت الملاعق وهي ترتطم بالصحون، ولكنَّ أخاه الصغير الذي ينظر الىٰ العالم ببراءة الملائكة قال دون مقدمة:

ـ لماذا بطنك كبيرة يا ماما؟ هل أكلت طعاماً كثيراً؟!

ابتسم ثامر ونهض لكي لا يسمع شيئاً، ولكن الأم أجابت بوقار:

ـ كلاّ يا عزيزي.. ان الله يريد يأتي أخ لك لكي تعلب معه.

ـ أنا أريد أخت يا ماما.

ـ نحن لا نعرف ذلك يابني.. الله وحده يعلم.

عندما شعر بان أمّه قد اطفأت النور للنوم استيقظ في كيانه نداء لكأن النور كان يمنع ذلك، تحسس في جيبه الورقة الصغيرة ليتأكد من حفظه رقم الهاتف، كان قد مضىٰ وقت من الليل...

المطر ما يزال يرشق النوافذ بحباته الصغيرة، إنّ غيوماً لا يعرف منشأها تتراكم في أعماقه.. تجتاحه رغبة في الصراخ.. في البكاء.. في الركض تحت المطر..

لم يخفق قلبه لسوسن لأنها تجسد حلمه.. بالرغم من وجهها الجميل.. عينيها النجلاوين لأنه يبحث عن وجه فيه مسحة من حياء.. وصفاء خال من الأصباغ... عن عينين يتألق فيهما ما يشبه تكسرات النور في الدموع.

ولكنه بالرغم من كل ذلك أدار قرص الهاتف، فرنّ جرس في غرفة سوسن همس متردداً:

ـ ألو سوسن؟

وجاء صوتها الجريء:

ـ تكلم بصوت أعلى.. لا أكاد أسمع حرفاً..

ـ أخشى أن تسمعني أمي!

ـ ماذا؟؟ أريد جملة مفيدة يا ثامر.. تظاهر بأنّك

تخاطب ولداً!

هتف في نفسه: ايـتها المـاكـرة لم التـفت الىٰ هـذه الحيلة:

ـ هل أنت نائم يا سمير؟

ورنّت ضحكتها:

ـ يا صغيري المسكين أنت لا تعرف بعد..

قاطعها:

ـ ما هذا الكلام يا سمير؟

ـ عفوا يا صديقي العزيز لم أقصد شيئاً.

أراد أن يغيّر حديثه:

ـ هل نذهب الىٰ السينما غداً؟

ـ ولم لا.. ولكن بشرط أن اختار الفلم.

ـ لا يهم.. المهم أن نذهب معاً.

ـ حسناً اتفقنا.. والآن اخبرني ماذا كنت تفعل؟

ـ لا شيء كنت أنظر الىٰ المطر.

ـ أنت تعجبني يا ثامر..

ـ لماذا؟

ـ انت تختلف عن أولئك الأولاد.

ـ هل لديك اصدقاء آخرين.

ـ تعرفت على بعضهم ولكنهم كانوا طائشين.. يهذون بأشياء و..

ـ عفواً ان أمي تناديني.. سأتصل فيما بعد.

وضع سماعة الهاتف وجفّف حبّات عرق فوق جبينه وشعر بالخزي من كذبته وفراره، هل يعاود الاتصال؟

نهض من مكانه وألقىٰ نظرة علىٰ الساعة المنضدية التي ما برحت منذ زمن بعيد تعلن: تيك تاك.. تيك تاك.

في طريقه الىٰ المغاسل حانت منه التفاتة فرأىٰ والدته غارقة في نوم هادىء والى جانبها بدا وجه شقيقه الصغير ملائكياً.

كانت عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل عندما رنّ جرس الهاتف أسرع ثامر الىٰ رفع السماعة قبل أن تستيقظ أمّه:

ـ ألو ثامر.. أنا أحبك..

ـ...

ـ تصبح علىٰ خير يا حبيبي.

انقطع الخط وأعاد ثامر السماعة الى مكانها وانتزع سلك الهاتف ولكنه أعاده مرّة أخرىٰ بعد دقائق، فربّما اتصل والده كعادته عندما يقرر العودة... ولكنّه في قرارة نفسه كان سعيداً بكلمات سوسن الدافئة.

اطفأ النور وراح يحدّق من علىٰ سريره خلال النافذة، توقف المطر، وسادت سكينة منتصف الليل، واستيقظت في رأسه هواجس لا حصر لها.. استيقظت خيول الأحلام وراحت تتراكض في البراري الواسعة وشيئاً فشيئاً كان يغرق في بحيرة من الخدر، وكفّت الخيول عن الركض.. كل شيء هادى.. ساكن غارق في خدر النعاس، ورآها تسير وحيدة ترتدي حلّة الزفاف.. أمسك بيدها عانقها.. هي أيضاً لم تمانع وشعر بالسعادة.. و.. وأستيقظ من النوم!

# 3

بدأت احداث الفلم بمشهد فجيع! فتاة في العشرين غـريقة عـلىٰ شـاطىء النـهر وكـانت الأمـواج تـداعب خصلات من شعرها الفاحم والىٰ جانبها جـرّة مكسـورة وقد ظهرت بعض المزارع في قـرية مـن قـرىٰ الصـعيد المصري..

وفي مشهد آخر ظهر ثلاثة رجـال قـرويين ومـعهم شرطي يحاورون طبيب القرية قال الطبيب متوجساً:

ـ خيراً

أجاب الشرطي الذي يبدو أنه من نفس القرية.

ـ هـناك عـلىٰ شـاطىء النـيل جـثة أمـرأة غـريقة.. المطلوب فحص الجـثة وكـتابة التـقرير قـال رجـل فـي الستين من العمر؟

ـ الوفاة طبيعية يا دكتور.. أنا أبوها.. وهذا عمها وهذا أخوها.

الطبيب يرفض كتابة التقرير دون فحص الجثة..

أجرىٰ الطبيب ومعه ممرض بعض الفحوصات، وأراد أن يكتب تقريره.. ولكن العيون كانت تنظر اليه متهدّدة.. فكتب: الوفاة طبيعية.. يصرّح بالدفن..

في نفس اليوم يفرّ الطبيب من القرية ويبلغ الشرطة بأنّ الفتاة تعرّضت للضرب وغطس رأسها في المياه حتى تموت غرقاً وأشار الى بعض الكدمات..

ويلقىٰ القبض على الجناة.. وبدأت خيوط القصة بالوضوح.. فهذه فتاة فرّت مع حبيبها لتتزوج منه في قرية نائية، بعد أن رفض أهلها استقباله، ثم حنّت الىٰ أهلها وظنت المسكينة أن هذه الشهور الطويلة كافية ليغفر لها أهلها، خاصّة وأنها لم ترتكب إثماً أو تخرج عن شريعة الله و لكنّها فوجئت بهم يقولون: إنّه العار والعار لا يمحوه إلاّ الدم! وكان زوجها المسكين قد أبلغ الشرطة باختفاء زوجته الحامل التي ذهبت لزيارة أهلها ولم تعد وأنه قلق علىٰ حياة زوجته لأسباب خاصّة..

كان منظر الزوج وهو شاب في مقتبل العمر مأساوياً وهو يحدّق حزيناً بالتراب وهو ينهال علىٰ نعش زوجته.. وفي عينيه يتجمع بريق لغضب يكفي للانتقام من هذا العالم القاسي.

عندما أضيئت الأنوار في الصالة ظهرت سوسن غارقة في حزن مرير وكانت عيناها محتقنتين بسبب البكاء... رفضت في البداية النهوض وكانت تصرّ علىٰ مشاهدة الفلم مرّة أخرىٰ، و لكنّ ثامر قال لها أن ذلك سيعرّضها للتهكّم فنهضت مستسلمة، واتجهت الىٰ المغاسل.. وقفت أمام المرآة وراحت ترش وجهها بالماء وأزالت ما تبقىٰ من أحمر الشفاه..

وعندما رآها دهش لوهلة!! انها ليست تلك الفتاة الطائشة أبداً قال مجاملاً:

ـ إنّك تبدين اكثر جمالاً بدون أصباغ!

لم تتجاوب سوسن معه، وأشارت الى اسم الفلم قائلة:

ـ من يا ترىٰ هو «الضحية»؟ بالتأكيد هي «وردة» المسكينة؟!

ـ ربّما لكنّي شعرت أن زوجها هو الضحية.

ـ انتم الرجال لا ترون غير أنفسكم.

ـ أنا لا أنكر مأساة وردة... ولكنها تعذّبت لحظات أما زوجها فسيبقىٰ يتعذب العمر كلّه.

لا تحمل همّاً «لأبي المعالي» سيتزوج قبل الأربعين.

ـ أمّا أنا فأقول انه سيموت قبل الأربعين.

ـ أنت تعبّر عن نفسك يا عزيزي.

ـ ربمّا.

ـ هل رأيت رجل الدين في الفلم؟ انه لم يحرّك ساكناً... أظنّ أن الفلم يريد ان يقول ان الدين لا يتدخل سلباً أو ايجاباً في حياة البشر!

ـ هذا ظلم.. لو اتبع الناس موقف الدين لما أصبحت الحياة بهذه المرارة!

ـ أنني اتعجّب منك... كيف؟ في رأيي أن الدين يقف متشنجاً إزاء الحبّ.

ـ أنت تنظرين الىٰ الدين من خلال بعض رجاله.

ـ ترىٰ ماذا يقول الدين في الحبّ؟

ـ الحب في الاسلام ليس حراماً إذا كان عاطفة نقية،

اذا لم يتحول الىٰ سلوك محرّم، وليس هناك من اثم في أن يحبّ الفتىٰ فتاة، تلتقي مع تطلعاته ومشاعره... وتبقىٰ هذه العلاقة مشروعة اذا ظلت في حدود الحلال ولم تخرج الىٰ سلوك محرّم.

سكتت سوسن لحظات وقالت:

ـ هذا الاسلام الذي تتحدث عنه موجود في بطون الكتب فقط.. انني لم اصادفة طيلة حياتي..

ـ ربّما ولكن الدين لا علاقة له بالنماذج السيئة التي تتحدث باسمه.

توقفت لتلقي عليه سؤالاً مباغتاً:

ـ هل تصلّي؟

سكت قليلا ثم أجاب:

ـ نعم.. لماذا تسألين ذلك؟!

قالت متهكمة:

ـ اذا كنت ولداً طيباً كيف تسمح لنفسك بمرافقة فتاة سافرة الىٰ السينما؟!

أجاب وهو يحاول التبرير لنفسه:

ـ قد لا ينسجم ذلك ولكنّه لا يتناقض.. ثم انني لا

أنوي خداعك ولكني اشعر بقوّة خفيّة تدفعني لأن اتبادل الحديث مع فتاة..

ابتسمت سوسن وكانت تحدّق في عينيه الخضراوين:

ـ أنت تتحدث ببراءة الملائكة.. انني اعبّر عن احترامي لك..

قالت سوسن ذلك ولوّحت بكفّها مودّعة.

# 4

عادت سوسن الىٰ المنزل والقت بنفسهامتهالكة علىٰ الأريكة والقت نظرة علىٰ جدّتها العجوز، مرّت سنوات طويلة، وهي لاتعرف في الدنيا غير جدّتها وهذا القصر المنيف وحرّية مطلقة... تفعل ما تشاء.. تخرج في أي وقت تحبّ وتعود في أي وقت تريد.. ندّت في أعماقها الحائرة لوعة: آه ما أسوأ أن يكون الانسان طليقاً من كل شيء!

رن جرس الهاتف، تركته يرنّ، ولكنها فكرت ربّما يكون ثامر، رفعت السماعة وكانت علىٰ الخط زميلتها في المدرسة سميرة.

ـ أين أنت يا بنت؟ هذه المرّة الألف..

قاطعتها:

ـ ماذا حصل؟

وجاء الصوت فيه دلال ودلع؟

ـ هل نسيت الحفلة.. أنا أنتظرك..

ـ لا استطيع يا سميرة.. أنا متعبة.

ـ لا اقبل عذرك.. المرض ممنوع فهمت ألو.. ألو.. لماذا لا تجيبين.

ـ إن حالتي لا تساعد..

ـ انها فرصة سيحضر ضيوف كثيرون.. وأنا حدّثتهم عنك.

ـ حسناً سآتي.. والآن اتركيني ارتاح قليلاً.

ـ الى اللقاء.

أعادت السماعة بضجر وتمدّدت فوق الاريكة. تحدّق في السقف.. واشتعلت في ذهنها مشاهد من الفلم، وكانت صورة ثامر تقفز في كل مرّة الىٰ ذهنها كطيف ملوّن.. لأول مرّة تصادف شاباً له هذه الشخصية المتزّنة.. لقد تعرّفت علىٰ كثيرين وكانوا جميعاً لم يملأوا عينها أبداً..

وشيئاً فشيئاً.. كان النعاس يقتحم كيانها.. ليغرقها في

بحيرة من الخدر اللذيذ والأحلام..

لم يستطع ثامر أن ينفض عن روحه هواجس بدأت تجتاح وجوده وتهزّ أعماقه بشدّة واصرار..

نداءات مجنونة تضجّ في أعماق ما لها من قرار.. حتىٰ بات يخشىٰ الوحدة بالرغم من ميله النفسي لأن يكون وحيداً..

عندما رنّ جرس الهاتف قفز اليه كما لو يقفز باتجاه طوق نجاة في بحر هائج..

ـ ألو.. ثامر؟

ـ نعم.

ـ أنا سوسن.. أرجو أن لا تعتبرني متطفلة.

ـ تفضلي!

ـ الحقيقة اني مدعوة الىٰ حفلة.. اعني انها فرضت عليّ.. عيد ميلاد زميلتي.

ـ ومادخلي أنا؟!

ـ أودّ لو ترافقني..

ـ الىٰ حفلة بنات؟!!

ـ حفلة مختلطة.. وقد تتأخر ولا أريد أن أعود

وحيدة..

ـ ولكن..

ـ لا تردّ طلبي رجاءً.. ولا تنس انك دعوتني الىٰ السينما فلبيّت.

ـ حسناً.. متىٰ؟

ـ الآن.. موعدنا بعد نصف ساعة في الميدان الكبير.

عندما رآها من بعيد قرر الفرار.. كانت سوسن أخرىٰ بزيّها الجديد انها ليست سوسن طالبة الثانوية، ولا تلك التي رافقها بعد انتهاء الفلم.. يكاد وجهها يختفي خلف نظارة سوداء.. وكانت بين الفينة والأخرىٰ تنظر الىٰ ساعتها..

أن يعد المرء يعني أن يفي بوعده.. قيمة أخلاقية ترسخت في أعماقه... كبرت معه ونمت بنموّه.. لهذا وجد نفسه منساقا اليها بخطوات متردّدة...

ـ ما هذا يا سوسن؟ هل نحن في باريس؟!

ـ لا كلام قبل السلام.. كما تقول جدّتي!

ـ ألم تتعلمي من جدّتك غير هذا؟!

ـ لا تكن قاسيا يا ثامر.. أنا مدعوّة الىٰ حفلة هل

تريدني أذهب بـ«الزي الموحد»؟!

ـ اخلعي النظارة أولاً.

ـ و أخيراً؟!

احمرّ وجهه.. وابتسمت سوسن وهي تخلع نظارتها وتسير باتجاه موقف الاوتبيس الذي يتجه الىٰ شمال المدينة.. وقد خامرها احساس بكبرياء من تجد لها رجلاً يغار عليها!

كانت شمس أخريات الخريف تنثر آخر أنوارها وقد بدت ذرى التلال تتألق بلون ذهبي شفاف..

فيما كان الاوتبيس ينساب علىٰ مهل حاملاً نسيجاً غير متجانس من البشر عمال بناء وطلبة جامعيين وعجائز.. وفتيات مصبوغات بطلاء كلوحات زيتية منفرة.. ليس فيهنّ ألق صادق..

وفي كل مرّة ودون سبب واضح تطفو في مخيلته صورة لعلبة سردين ملوّنة كلما وقعت عيناه علىٰ هذا الصنف من الفتيات..

اشتعلت غيوم الأفق الغربي بحمرة متوقدة، وكانت سوسن تحدّق ساهمة في المشاهد التي تتحرك خلف

نافذة الاوتبيس.. أما ثامر فكان يعقد مقارنة بين عجوز جلست الى جانبها فتاة مراهقة..

لا توجد أدنىٰ صلة بين الجيلين.. ولا يوجد أدنىٰ همّ مشترك بين الجدّة والحفيدة.. سوىٰ ما صنعته قوانين الوراثة وما عدا ذلك فغربة يجسّدها صمت ثقيل..

عندما وصل الأتوبيس محطتة النهائية كانت ظلمة الغروب قد نشرت ظلالها الحزينة.. ولم تفلح مصابيح الشوارع التي أضيئت مبكراً في تبديد حالة الحزن.. قالت سوسن دون مقدمة:

ـ يتوجب اجتياز المتنزّه لنصل في الوقت المناسب الىٰ منزل سميرة.

كان المتنزّه مقفراً في ذلك الغروب الخريفي، وبدا البستاني وراء نافذة الغرفة الوحيدة ينظر الىٰ السماء..

كان الصمت يهيمن علىٰ المشهد ما خلا صوت أذان المغرب ينطلق من مذياع البستاني.. كنهر هادىء...

راح يصغي الىٰ صوت الأذان وكان حنوناً يطير به الىٰ الأعالي، واشتعلت في أعماقه مشاهد قديمة عن المسجد الابيض، ومساقط الضوء عبر الزجاج الملوّن فوق السجاد

النـظيف... وشـجرة الكـالبتوس التـي تـظلل الحـوض الصغير..

توقف أمـام صـنبور تـتساقط مـنه قـطرات، وخـلع جاكته! هتفت سوسن:

ـ ماذا تفعل؟!

التفت اليها:

ـ أتوضأ.

ـ تتوضأ؟!!

ـ أتوضأ وأصلّي.

وانثالت المياه الباردة علىٰ الوجه المـتألق... وكـانت سوسن تراقب مأخوذة منظر ثامر..

لم يكد ثامر يطأ العشب الأخضر المشـوب بـصفرة الخريف بقدميه العاريتين؛ حتىٰ كان البستاني يتقدّم اليـه ويقدّم إليه سجّادة صغيرة.. قال البستاني وكان رجلاً فـي خريف العمر:

ـ هذه سجّادة أبي رحمه الله... كان يفرح عندما كـنت اصلّي عليها... وأظن أنه سيسعد إذا رأىٰ شاباً يصلّي..

شكر ثـامر البسـتاني بأدب ونشـر السـجّادة بـاتجاه

القبلة، فيما عاد البستاني أدراجه الىٰ الغرفة. أما سوسن فراحت تتمشى بهدوء خلال الأشجار في الممرّات المبلطة بالاسمنت.

جبين ثامر يلامس برقة العشب وانفه يتخلل تلك الخضرة، وكانت رائحة الأرض الندية تملأ صدره، فتغمر روحه حالة أخاذة من التسامي ويضيء قلبه بنور عجيب نور لايمت بصلة الىٰ ضوء الشمس ولا أشعة القمر.

# 5

لم يسبق له أن حضر حفلة من هذا النوع، ومع ذلك لم يتهيب بحيث يستسلم لثقافة وجد نفسه فجأة وجهاً لوجه أمامها..

خالجه إحساس مبهم ومتناقض... بين نداء خفي يدعوه للتسامي والابتعاد عن هكذا أجواء تشدّه الىٰ الاسفل..

ولكن هذا الشباب المتفجّر بالحيوية، وتلك العطور المجنونة لا يمكن للمرء أن يقاوم إغرائها، وهي في كل الأحوال تجربة ستثري شخصيته، وعالم تزحف ثقافته في كل ساعة..

وجد ثامر نفسه مركزاً للجميع خاصّة الفتيات عندما قدمته سوسن بكلمات مقتضبة ممتزجة بابتسامة عريضة:

ـ ثامر.. طالب جامعي..

واستدركت:

ـ قسم الفلسفة.

علّق شاب وهو ينظر بطرف خفي:

ـ لقد حدست ذلك من أناقته!!

اكتفىٰ ثامر بنظرة فيها تسامح، فكان سكوته عن الجواب جواباً بليغاً شعر الجميع بدويّه!

ارتفع صوت موسيقى راقصة كغرائز مكبوتة تترقب لحظة الانطلاق، وبدأت النفوس الشابة المتفتحة للحياة تستجيب، حتىٰ ثامر الذي ينفر في طبعه من هذه الموسيقىٰ، كان في قرارة نفسه يتجاوب مع تلك النداءات الراقصة التي تضج بالحياة...

عشرون فتىٰ وفتاة في مقتبل العمر في صالة فسيحة في بيت فتاة تتمتع بالحرّية المطلقة.. حياة متفجّرة وشباب... والموسيقىٰ لا تكف عن الضرب علىٰ أوتار الغرائز المجنونة.. موسيقىٰ ذكرته بفلم امريكي هابط..

وجد نفسه في أزمة فهو لا يستطيع أن يغادر المكان ولا يستطيع أن يتحمل اكثر من هذا، وليس من اللياقة أن

يعترض..

الموسيقىٰ الطائشة ما تزال تصدح باصوات فاضحة، واستحالت الصالة الىٰ غابة أفريقية..

وكانت حركات الفتيات والشبّان تعكس طيش وفراغ الجيل الذي يبحث عن طريقه..

لم تكن سوسن هي الأخرىٰ منسجمة مع الجوّ وإن بدت تتظاهر بذلك.. لهذا ما إن وقعت عيناها علىٰ ثامر في عزلته حتىٰ خفّت اليه كغريق يرىٰ فجأة طوق النجاة..

وتألقت ليلىٰ وهي فتاة في السابعة عشرة من العمر.. تألقت بجمالها الأخاذ وبجرأتها المدهشة.. أخذتها نشوة الشباب عندما علا صوتها تتساءل:

ـ من يخبرني عن الفرق بين المرأة والكرة؟!

سؤال بدا عجيباً في نظر الجميع، ولكن شابّاً كان أكثر جرأة أجاب متخابثاً:

ـ لا فرق.. لأن المرأة والكرة تلاحقان من قبل الرجال.. ثم تركلان..

قالت ليلىٰ:

ـ ولكن هناك فرق جوهري:

سيطر سكوت مهيب، كسرته ليلىٰ بجرأة لا حدود لها:

ـ الكرة عندما تثقب تنكمش، بعكس المرأة تماماً.

ندّت صيحات خجولة من بعض الفتيات، وخاطبت سميرة ضيفتها في عتاب:

ـ لم تكوني هكذا يا ليلىٰ.. لقد كنت فتاة طيبة..

دافعت ليلىٰ وهي ترمق ثامر بنظرة ذات معنىٰ:

ـ اعتذر عن سوء الأدب.. لقد أردت أن أكسر حاجز السكوت لدىٰ بعض الضيوف.

التفت الجميع الىٰ ثامر الذي قال في هدوء وابتسامة:

ـ وما جدوىٰ الحديث في هذا الصخب... الصمت في مثل هذا الجو أفضل ألف مرّة من كلمات لا يسمعها أحد..

ردّت ليلىٰ باستفزاز:

ـ انت تتحدث كفيلسوف!

ـ لكل انسان نظرته الىٰ الأشياء... ليس للأشياء لون ذاتي انها تكتسب ألوانها من نظرات الآخرين.. خضراء في عيون المتفائلين مثلاً، وكابية مشوشة في عيون

المتشائمين وهذه المقارنة بين الكرة والمرأة تخضع لفلسفتك الخاصّة... أما الآخرون فقد ينظرون الىٰ المرأة نظرة متسامية. فهي أم حنون أو أخت طيبة أو عذراء بتول...

أصبحت الصالة أشبه بميدان للصراع الفكري.. وظهرت ليلىٰ وهي ترفع راية الانطلاق والحرية قالت متحدّية!

ـ أنني متفائلة بالحياة أحب الحريّة وأحب الانطلاق أما أنت فان صمتك وعزلتك تعكس رؤيتك السلبية للحياة... أنا مثلاً أدرك شبابي.. أريد أن أعيش حياتي بلا قيود.. لست مقتنعة في «لفّ» جمالي في كيس أسود: .. وهذا ميل طبيعي في ذاتي وتكويني..

سكتت لحظات، فقال ثامر:

ـ أنت في رأيي ـ كرجل ـ مجرّد قنديل برّاق فقط منطفىء من الداخل ليس فيه ضوء ذاتي.. وكرجل أيضاً أؤكد لك إنّ جنسنا ينظر الى الفتاة كلؤلؤة في صدفة أنهم لا يريدونها عرضة للعيون المتشهية... وحسب اعتقادي إنّ المرأة تنظر الىٰ الرجل كنجم لها في السماء.. النجم

الذي يرسل لها البريق ويهديها الطريق...

قالت ليلىٰ في مكابرة:

ـ في اعتقادي أن الأمور غير ذلك.

قال ثامر:

ـ ربما تتحدثين ككرة تُطارد وتركل.. لا لؤلؤة.. وفرق كبير بين الصنفين.

بدا الجوّ العام في صالح ثامر باستثناء بعض الشبان النزقين وقد هتف سهيل:

ـ نريد أن نمارس حقنا في الحرّية.

أما ليلىٰ فقد عمدت الىٰ إيقاف جهاز التسجيل الذي كان يبث الموسيقىٰ وقالت متهكمة:

ـ ان صديقنا ثامر يحبّ لحفلتنا الصمت... سكوت في سكوت... كأجواء الحداد..

لم يردّ ثامر.. واكتفىٰ باخراج شريط كاسيت من جيب جاكته ليضعه في جهاز التسجيل.. وانطلقت موسيقىٰ هادئة:

«... علىٰ مرمى البصر تختفي القرية تحت الجليد..

تتجمد السواقي وتخمد الحياة و.. الكلمات..

وتصفر الريح..

وتنثني الاشجار العارية بين يدي العاصفة...

وتنبح الكلاب وتصرّ طواحين الهواء..

ويمضي ذلك الشاب وقد حطّمه اليأس...

يحبّ ولا يحب.

حياة بلا هدف...

يهيم على وجهه في ليل الشتاء...

هارباً من المدينة حيث تعيش فيها محبوبته اللعوب...

فجأة يلمع البرق في السماء..ينبثق المطر.. يغسل قلبه...

يولد الحبّ الحقيقي...

# 6

في طريق العودة كانت سوسن أكثر هدوءً قالت وهي تكاد تلتصق بثامر:

ـ كانت موسيقىٰ مؤثرة.. لوحه من الحزن واليأس... ولكنّي رأيتك تتمتم بشعر فيما يبدو.. أو هكذا خيل لي!!

ـ الحق معك.. لي محاولات محدودة وأنا أحب الشعر كثيراً.. واعشق من بين الشعراء بدر شاكر السيّاب... فبالرغم من عشرات السنين التي تفصلنا عنه إلّا إنّه في رأيي أكثر الشعراء صدقاً في تجربته الانسانية.

اما عن سؤالك... فالموسيقىٰ تعبر عن انفعالات في أعماق النفس... كما ان الانفعالات هي مصدر الانغام فالموسيقىٰ المؤثرة تلك التي تقترب بصدق من نبضات القلب... وأنا شخصياً اتأثر بالموسيقىٰ وكنت أكتب

محاولاتي الشعرية في ظلال قطعة موسيقية أحبّها.

ـ وهل كتبت شيئاً في ظلال هذه الموسيقىٰ.

ـ محاولة بسيطة في بدايتها.. استمعي:

.. كما تموت العصافير في الحقل...

وتخبو الشموع..

ينطوي عمرنا.. ويذوي الربيع.

والحكايا.. وذكريات صبانا..

والمواقد ولهونا.. والدموع..

ينطوي كل شيء ويغدو سراباً..

حلماً.. راود الظاعنين.. الرجوع.

قالت سوسن بعد لحظات صمت:

ـ لوحة غارقة في اليأس.

ـ هذا صحيح.. اننا نبتعد في كل يوم عن ذكريات الطفولة ويتأجج في الأعماق عوضاً عن ذلك حنين لا يقاوم.. وفي رأيي انه يجسد حلم الانسان في العودة الى الفطرة.. حيث تتألق معاني الطهر وحيث يوجد الانسان البريء المغمور في زاوية النسيان..

وفيما يعبران الشارع المضيء، تساقطت حبّات مطر

خريفي فندّت من سوسن كلمة تعبّر عن الانزعاج وهي تنظر الىٰ السماء المثقلة بالغيوم وقد اختفىٰ القمر

علّق ثامر وقد ملأت حبّات المطر نفسه بالبهجة كطفل:

ـ ما زلت أحفظ حواراً في رواية قرأتها قبل سنوات؛ المطر يتساقط فوق اسفالت الشارع وهما يعبران قال والمطر يغسل وجهه:

ـ السماء تبكي خطايا التعساء.

ـ السماء لا تبكي على أحد.. البشر وحدهم الذين يتعرّضون لموجات الحزن وهزّات الفرح.

ـ كلانا يرىٰ ما لا يراه الآخر.

ـ كلانا يرىٰ المطر!!

ـ لكن التفسير يختلف.

ـ التفسير دائماً منطقه الخلاف.

كانت سوسن تصغي الى ثامر باحترام قالت مستوضحة:

ـ هل تقرأ الروايات؟

ـ كثيراً جداً!

ـ ماذا قرأت مؤخراً.

ـ رواية اسمها: «الساعة الخامسة والعشرون».

ـ سمعت الاسم واثار اهتمامي غرابته

ـ تتحدث الرواية عن بشاعة عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ومسخ الانسان الىٰ آله ولكن ما شدّ انتباهي المقطع الذي يتنبأ قائلاً:

«.. ان انهيار المجتمع التكني هذا، سيعقبه اعتراف بالموهبات الانسانية والعقلية، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولاشك .. من آسيا..

ولكن ليس من ورسيا.. ان الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي.. لذلك لن يعيشوا ليروا الاشراق.. سيكتسح الانسان الشرقي المجتمع التكني، وسيستعمل النور الكهربائي لإنارة الشوارع والبيوت.. لكنه لن يصير له عبداً أبداً... ولن يقيم الهياكل كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع التكني الغربي..

انه لن يضيئ بنور «النيون» خطوط الفكر والقلب.. ان انسان الشرق سيجعل من نفسه سيّداً للآلات وللمجتمع

التكـني، مسـتعيناً بـعقله كـما يسـتعين رئـيس الفـرقة المـوسيقية بـعبقريته المسـتمدّة مـن الجـرس الموسيقي..

قالت سوسن:

ـ هل تؤمن بهذه النبوءة؟!

ـ أنني أرى بعض ملامحها.. وقد نكون الجيل الذي يدرك النور الجديد...

واستقلا الاتـوبيس وكـانت قـطرات المـطر تـرشق النوافذ بهدوء فتتزحلق فوق الزجاج كدموع الأمهات..

لم تتحدث سوسن وتركت صديقها في اسـتغراقـته التي تشبه الصلاة...

وتوهجت في أعماق ثـامر «انشـودة المـطر» فـراح يدندن بكلماتها فيما المشاهد الشاعرية تشتعل في خياله كبروق سماوية...

مدت يدها الىٰ ثـامر يسـاعدها عـلى التـرجـل مـن الأوتبيس... تظاهر ثامر بان الأمر لا يستدعي المساعدة.. وأدركت سوسن إنّ صديقها العـجيب لن يـصافحها لأن دينه لا يسمح له بذلك...

أرادت استفزازه فقالت:

ـ لقد كدت أسقط.. ماذا لو رأيتني أغرق في البحر ربما تكتفي بالتفرج فقط!!

أجاب محتجاً:

ـ ان الأمر سيختلف إذن... سوف أكون أول من ينجدك!

قالت بمرح:

ـ شكراً على شهامتك.

وردّ ضاحكاً:

ـ وشكراً على حسن ظنك.

كانت تودّ لو ان الطريق يمتد الىٰ ما لا نهاية.. لولا هذا المطر الذي يفجّر في أعماقها كآبة قاتلة...

أصبحت قريبة من المنزل.. شكرت ثامر الذي لوّح مبتسماً، ثم غابت في الزقاق المقفر الّا من المطر.

# 7

القت سوسن بنفسها فوق أريكة وثيرة ضغطت على زر صغير فأضاءت شاشة التلفاز وراحت تقفز عبر الأرقام الىٰ قنوات تلفزيونية عربية وأجنبية، والقمر الصناعي الموجود في نقطة ما في مدار الأرض ما انفكّ يرسل بسخاء أفلاماً غريبة...

رنّ جرس الهاتف.. أطفأت التلفاز وجاء الصوت جريئاً وقحاً:

ـ لماذا تفرّين مني كالفأرة.. ان اسمك الحقيقي فأرة وليس سوسن...

وانطلقت ضحكة ماجنة... لم تسمعها من قبل قطعها ليقول:

ـ هل أنا مخيف لكي تفرّين.. هل أنا قط أسود.

قالت بغضب:

ـ أنت أسوأ من ذلك.. أنت ذئب.. لن انخدع بكلامك المعسول.

ـ ماذا حصل؟! لقد كنت اخشىٰ عليك البلل... وأردت...

أعادت السماعة بعنف.. ورنّ الجرس مرّة أخرىٰ وأخرى.. واشتعلت مشاهد ليست قديمة.. مشاهد أليمة:

كانت تنتظر السيارة لتذهب الى المدرسة عندما توقفت أمامها سيارة انيقة.. وجاء صوت مهذب يقول:

ـ هل استطيع أن أوصلك؟!

التفت اليه.. كان شاباً وسيماً يرتدي بدلة فاخرة، يستطيع المرء أن يحدس مدى ثرائه.. كان الوقت ضيقاً لا يسمح بالانتظار أكثر.. هكذا أوحت الى نفسها.

خفق قلبها... فلأول مرّة يتحدث اليها شاب.. عندما فتح لها الباب ركبت، أدركت ان هذا الشاب يريدها صديقة له.

عندما انسابت السيارة الفارهة، كانت سوسن سكرىٰ هاهي تجلس الى جانب شاب ثري جميل.. يمكنها الآن

أن ترفع رأسها أمام زميلاتها في المدرسة... كم سمعت من الكلمات القارصة.. البنت الصغيرة.. المعتوهة... المذعورة ألقاب، وألقاب كانت تسمع من هذه وتلك.. لعلّها الوحيدة من بين أترابها التي لم تصادق ولداً وهي في السنة قبل الأخيرة من الثانوية..

انتبهت الى نفسها على صوته:

ـ أعرّف نفسي.. ماهر.. مدير شركة استيراد خاصة... هل اسمك جميل مثلك؟

خفق قلبها وقالت:

ـ سوسن.. طالبة في الثانوية.

ـ اسم جميل.. عندما رأيتك فكرت أن ملكة جمال العالم قد جاءت الى بلادنا..

ابتسمت منتشية بالرغم من ادراكها أنه يمزح.

عندما وصلت المدرسة تعمدت ان تتمهل في النزول ليراها أكبر عدد ممكن زميلاتها... كانت سكرىٰ وهي تسمعه يقول:

ـ انني احبك.. صديقتي... لقد سمعت بالحب من أول نظرة ولكن لم اكتشفه الّا هذه اللحظة..

كانت الكلمات العذبة تفعل فعل السحر وكادت تفقد صوابها وقد فاضت عيناها بنشوة الحبّ...

انطفأ المشهد ليشتعل في ذاكرتها مشهد آخر...

الوقت عصراً... وكانت السماء تنث مطراً وهي داخل السيارة وقد مرّ على علاقتهما أسابيع كان يوصلها في كل يوم بسيارته الفارهة.. اكثر من عشر مرّات ذهبا فيها الىٰ السينما.. وعشرين مرّة ذهبا الىٰ مطاعم فاخرة.. وماهر ينفق بسخاء... وما تزال أول قبلة محفورة في ذاكرتها...

اقترح والسماء تمطر:

ـ ماذا لو نذهب الى منزلي... سأعرفك الى أهلي.

ـ إنّ جدّتي ستقلق..

ـ نصف ساعة فقط.. ما رأيك؟

ـ نصف ساعة.

انطلقت السيارة عبر شارع عريض باتجاه الشمال وكان المطر يرشق الزجاج.. بعد عشر دقائق دخلت حيّاً عصرياً.. ثم لتتوقف أمام قصر منيف.. أخرج جهازاً صغيراً عبر النافذة، وانفتح باب كبير لتدخل السيارة على هون في باحة واسعة..

- تفضلي.

قالها وهو يمدّ يده بطريقة فيها احترام متكلّف..

وجدت نفسها في بهو واسع وقد أثار انتباهها كثرة اللوحات «السوريالية» لفنانين عابثين...

كان الصمت يجثم فوق المكان كنسر مخيف... أدركت غريزياً أنها وقعت في الفخ.. لم يكن هناك من أحد سوىٰ ماهر الذي انسحب من البهو قائلاً أنه سيعدّ فنجانين من القهوة!

ارتجف الفنجان في يدها.. نظرت الى ساعتها بارتباك ظاهر قالت:

- إن جدّتي تنتظر.. لن اتأخر أكثر.

- لا داعي للقلق سأوصلك بمجرّد توقف المطر.

استحالت نظراته الحادّة الى مخالب تمزّق بوحشية ثيابها.. شعرت أنها تحترق في جحيم من هذه النظرات الملتهبة.. نظرت مرّة أخرى الىٰ ساعتها..

نهض ليدخل إحدى الغرف.. حدست أنه ذهب الى غرفة النوم.. أصبح قلبها يدق كطبل أفريقي مجنون... لأوّل مرّة في عمرها تجد قلبها يتجه الىٰ نقطة ما في

الوجود الى جهة تشير لها بوصلة القلب في لحظات الخطر قال لها:

- يمكنك تصفح هذه المجلات ريثما أعود..

ألقت نظرة الى كومة مجلات أجنبية.. كانت أغلفتها تشف عن خلاعة وعري... مجلات ممنوعة ولكنها متوفرة بكثرة!!

تماسكت لتبدو هادئة، وعندما غاب خلف الباب.. انبعثت في كيانها قوّة جبّارة لتقفز خلال لحظات الى باب البهو ومنه الى الباب الخارجية...

وراحت تركض بكل ما أوتيت من قوّة فيما كان المطر يرشق وجهها بعنف...

ولم تشعر بالامان حتىّ استقلت الأوتبيس الذي اخذها باتجاه الجنوب.. ماتزال بعد كل هذه الشهور الطويلة تتذكر ما حدث.. تتذكر بأسىٰ حبها الفاشل... وفارس أحلامها.. ذلك الذئب الذي يرتدي بدلة أنيقة ويستقل سيارة فارهة ويتحدث عن الحب...

ما تزال تنفر من المطر... قطرات من المطر قليلة كافية لتوقظ في رأسها مشاعر الرعب التي عاشتها في ذلك

الأصيل المطير...

قذفت في جوفها قرصاً صغيراً، فيما كانت الأفكار تتراكض في رأسها كذئاب في ليلة عاصفة، وشيئا فشيئاً خفت العواء، وانطفأت المشاهد القديمة..

وتألق وجه ثامر مشرقاً بابتسامة أمل جديد... وكانت تغرق في بحيرة من الخدر فوق الأريكة الوثيرة.

# 8

شمس الخريف تغمر باحة المنزل وقد امتلأت بأوراق صفر وبرتقالية.. شعر ثامر بالدهشة قليلاً.. اعتاد أن يراها كوماً في زاوية قرب الباب وقربها مكنسة من تلك التي تعرض في الأسواق الشعبية..

وقبل أن يلج البهو وجد ما جعله يفكر بوجود ضيفة لم يحدس من تكون!.. لم تطل تساؤلاته.. كانت خالته التي تسكن في غرب المدينة...

وزادت دهشته هاهي خالته تزورهم بعد قطيعة، لم تكن لترغب فيها أبداً.. ولكن ماحصل، لم يكن بيدها.. اللوم كلّه ينصبّ علىٰ فاتن ابنتها.. فتلك الفتاة العنيدة كما يسميها أبو ثامر كانت السبب..

أربعة شهور مرّت والاختان لم تتزاورا وخلال هذه

المدّة كان ثامر يزور خالته ويتفقد زوجها المتقاعد.. كان يتحاشىٰ الحديث مع فاتن التي كانت تردّ تحيته بـجفاء.. وكانت تتصوّر ان والد ثامر يريد حرمانها من الدخول في الجامعة لا يريد أحداً ينافس ابنه فكيف اذا كانت بنتاً؟!

سمع ثامر ذلك من خالته في وقت سابق أثناء زيارته فاكتفىٰ بابتسامة ساخرة ولم يردّ وفسّرتها فاتن بانها اعتراف بالحقيقة!

ولكن ما الذي جعل خالته تأتي... ولماذا تبدو عيناها محتنقتين وقد لفّها ذعر تعكسه حركاتها!

ـ ماذا حصل يا خالة؟!

أجابت أمّه بالنيابة.

ـ لا شيء.

تدخلت خالته وقد طفرت دمعة من عينها.

ـ فاتن..

ـ ماذا حصل؟

ـ أولاد الحرام... دنسوا شرفنا... ماذا أقول لأبيها المسكين سيموت..

سكت ثامر وقد امتلأ قلبه مرارة... كان يحتمل الذي

حصل ولكن ليس بهذه السرعة.. فاتن مع جرأتها وعنادها لا يمكن أن تزلّ... في زيارته الأخيرة... سمع من خالته أنها تبحث عن عمل بالرغم من مخالفة خالته... ولكن فاتن كانت تصّر على توفير نفقات الجامعة... ووافق الأب علىٰ مضض... تذكر ثامر فرحتها وهي تمسك بالجريدة وتقرأ اعلاناً صغيراً لشركة أهلية عن حاجتها لسكرتيرة، قال لها في وقتها:

ـ ليس من الصحيح أن تذهبي.

ـ لماذا؟! انني ابحث عن عمل لا أريد أن أكون عاطلة.

ـ الشركات الاهلية الصغيرة لا مستقبل فيها.

ـ ما الفرق؟ الشركة شركة في كل الاحوال، و أنا أحب هذا النوع من العمل.. قطاع خاص أم قطاع عام لا فرق.

نهضت خالته دون مقدمات قالت أختها:

ـ الىٰ أين؟ لقد أعددت شاياً.

أجابت بلوعة:

ـ أشرب سماً وأموت أفضل لي...

ونظرت الى السماء الزرقاء وهتفت:

ـ لعنة الله علىٰ أولاد الحرام.

ارتدىٰ ثامر جاكته فنادت الأم.

ـ لقد وصلت الآن وتريد أن تذهب!!

أجاب وهو يسوي بدلته:

ـ سأوصل خالتي وأعود سريعاً.

كان ثامر يريد معرفة المزيد من التفاصيل.. في الطريق وخلال الأزقة.. كانت خالته تتمتم بكلمات مشتته وسمع بوضوح:

ـ ليتها سمعت كلامك يا ولدي.. فاتن ما الذي فعلتيه بنفسك؟!

تجرّأ ثامر ليسأل:

ـ ولكن ما الذي حدث يا خالتي... فاتن فتاة عاقلة اجابت لاهثة.

ـ وما يفيد العقل يا بني مع ذلك الذئب؟! حتىٰ فاتن لاتدري ما جرىٰ عليها...

ـ يا خالتي لا أفهم شيئاً.

ـ يا بني يا ثامر.. دخل عليها مدير الشركة بعد ذهاب الموظفين وأعطاها ورقة كلينكس لتشم عطرها.. ثم لم تدر ما حصل بعدها... وصلت المنزل متأخرة عن الوقت

المـعتاد.. واتـجهت الىٰ غـرفتها وظـلّت تـبكي حـتى الصباح...

ـ الحقير.. ابن الحرام: ... سينال عقابه...

انفجر غضب في اعماقه.. غضب يكفي لتدمير شركة ذلك الوضيع.. قالت خالته:

ـ لقد كسر قلوبنا.. كسر الله قلبه ورأسه..

قال ثامر:

ـ أهل ابلغت الشرطة؟

ـ نعم وطلبنا منها التكتم علىٰ الأمر.. لانريد أن نجمع المصيبة والفضيحة...

سكتت لحظات ثم استأنفت:

ـ أنت مثل ولدي.. الطبيبة قالت بعد الفحوص: طلقي ابنتك.. هذا ليس زوجاً هذا ذئب... سألتـها عـن الحـمل، فنصحتنا بالانتظار!

عندما أراد ثامر ان يستقل الاوتبيس منعته خالته:

ـ ارجـع يـا ثـامر.. أمك وحـدها.. ولكـن لا تـتركنا لوحدنا...

وغادر الأوتبيس محطته وغاب وجه خالته الحزين..

وجه يكاد يبوح بكل مآسي الامهات... هذا الجيل الذي لن يجود الزمن بمثل تضحياته وحنانه.

# 9

كان يمشي علىٰ غير هدى... كمن يبحث عن ظله في يوم غائم وتوهج في ذاكرته وجه فاتن... تخيلها تبكي بمرارة...

الطريق المؤدية الىٰ المتنزه هي الاخرىٰ مظللّة بالأشجار وقد امتلأت بأوراق الخريف المتساقطة... وكانت أصداء خطاه وخشخشة الأوراق تملأ اذنيه، وطالعه وهو يلج المتنزّه مشهد لفتى وفتاة يتحادثان.. وكانت الفتاة تتطلع الىٰ الشاب بحبّ.. كان يتحدث أما هي فصامتة.. تصوّره لوهلة ذئب سوف يفتك بالحمل الوديع.. ودّ لو يصرخ بها احذري هؤلاء الشباب... أنهم ذئاب! ولكن كيف له أن يفعل ذلك؟!

حتىٰ لو جمعوا كل فتيات الدنيا وتحدثوا معهن

آلاف الساعات ورووا آلاف الحكايات عن عاقبة هذه العلاقات.. فان ذلك لن يجدي شيئاً..

كلمة حب واحدة تسمعها الفتاة تطيح بكل توازنها ووعيها... وربما بإرادتها... تجعلها سكرىٰ لا تبصر مواضع قدميها في الطريق...

تمنّىٰ أن يلتقي سوسن، ليبثها هواجسه... أفكاره... قلقه وحزنه المرير... ولكن لا شيء.. لا شيء سوىٰ الأشجار وبعض العابرين..

ونعق غراب وهو يغادر شجرة احرقها الخريف ومرّت فتاتان.. كانت احداهما تلقي برأسها علىٰ كتف صديقتها.. وشعور بالسكينة يغمر وجهها البريء.. ربما كانت تنشد المحبّة والحنان.. فدفعتها الغريزة الىٰ كتف صديقتها التي بدت اطول قامة منها..

نهض من مكانه.. ظلّ يدور في ممرّات المتنزه الظليلة.. كان يدور ويدور لكأنه يبحث عن المدينة الفاضلة وهو في نهايات القرن العشرين!...

وفي كل مرّة كان غضب يتفجر في اعماقه كبركان يتهدد مدينة آثمة..

غادر المتنزّه من نفس البوابة... ما تـزال تـلك الفـتاة المراهقة تبحلق مفتونة بفارس احلامها! تأملهما بنظرات متفحصة.. ان فارق العمر بينهما قد يصل الى عشرين سنة: انه يبدو في الخامسة والثلاثين تقريباً..

عندما الفىٰ نفسه في الشارع، لم يكن قد قرر وجهته بعد ولذا قطع خطوات هـائمة... وحـانت مـنه التـفاتة لا شعورياً ربما شدّته الالوان الزاهية في مـلابس الشـاب... وعرفه بالرغم من النظارات السـوداء التـي تـغطي ثـلث وجهه.. انه سهيل الذي رآه في تلك الحفلة... كان مـتوتر الاعصاب.. اقترب منه شاب آخر في مثل سنّه يـهمس له بكلمات غامضة.. تلفت سهيل بعصبية واضـحة قـبل أن يدسّ مفتاحه في سيارة فارهة...

في البداية ظن ثامر انـها سـيارته ولكـن عـندما رأى ارتباكه، ورأىٰ ذلك الشاب ينطلق بدراجته النارية خـلفه شك في سرقتها.. إذن فسهيل لص مـحترف هـمس فـي نفسه ساخرا مردداً كلماته في الحفلة: «نـريد أن نـمارس حقنا في الحرّية»!! فكر بفعل شيء ما.. ولكنه طوح بـيده كمن يرمي عن كاهله «صخرة سيزيف» وهتف في أعماقه:

ـ ماذا بوسعي أن أفعل.. أنني لا أستطيع تغيير العالم..

توقف عند شجرة كالبتوس واقتطف ورقة صغيرة عصرها بسبابته وابهامه وشمّها... واشتعلت في ذاكرته صورة قديمة... أيقظت رائحة الكالبتوس ذكريات الطفولة البريئة.. صعدت الدموع الىٰ عينيه.. صعدت من قلبه وروحه وود لو يبكي.. وبدت له شجرة الكالبتوس شجرة الفردوس المفقود...

الهاتف العمومي بدا وكأنه يدعوه الىٰ القيام بمسؤوليته كمواطن صالح... الكلمات الي تلفظها محدودة.. مثل برقية سريعة:

ـ الو.. وقعت حادثة سرقة... في الحقيقة لست متأكداً.. مجرّد شواهد.. أرجوك استمع.. نعم.. سيارة زرقاء.. مرسيدس.. السارق شاب في العشرين.. يرتدي بنطال جينز وقميص ملوّن.. ويضع علىٰ عينيه نظارات سوداء.. متوسط الطول نحيف الىٰ حدّ... صدقني لا أمزح.. سجل هذه المعلومات ربّما تفيدكم، وانني مستعد للادلاء بشهادتي اذا ابلغكم أحد باختفاء سيارته.

أعاد سماعة الهاتف.. ومضىٰ في طريقه لا يلوي علىٰ

شيء لم يشأ ان يذكر لهم اسمه.. ربّما لم تكن سرقة.. ولعل سهيل كان عصبياً لسبب آخر!...

ظلال الغروب تغمر الشارع وقد أضيئت المصابيح وكانت قطرات مطر لسحب تحشدت منذ الظهر قد بدأت تتساقط بهدوء ـ لا يكاد يشعر بها أحد.. ونظر ثامر الىٰ السماء بأمل.. ان زخة مطر كافية لتغسل قلبه وتطفىء الحمىٰ الملتهبة في رأسه..

لم تخب ظنه الغيوم تسارعت قطرات المطر.. لتوقظ في كيانه نشوة الاتحاد مع الوجود، والكون والحقيقة الوحيدة.. والذي ضاعف نشوته الروحية صوت أذان ينساب بحنان من مسجد قريب.. وأسلم خطاه بل وجوده الىٰ الصوت الملائكي ليقوده الىٰ مسجد اكتشفه هذا الغروب.

الوضوء تحت المطر تجربة جديدة حيث تلتقي مياه الارض بمياه السماء لتغسلان برفق روح الانسان.

الأعمدة البيضاء الناصعة والمحراب المضيء والزجاج الملوّن وتدفق الاضواء أعادت ثامر الىٰ ذكريات طفولته في المسجد الأبيض...

وعندما غادر المسجد كانت حبات المطر ما تزال تتساقط بهدوء وتغسل الاشجار والاسفلت وولد في قرارة نفسه عزم بالذهاب الىٰ بيت خالته ليمضي ليلته هناك، ولم ينس أن يتلفن الىٰ امّه بهذا الخصوص...

# 10

أمطرت السماء يومين متواليين وكان الرعد يجلجل في أرجاء الفضاء اللانهائي.. وأشاع غياب الشمس جوّاً من الكآبة والحزن فبدونها لن تظهر الألوان علىٰ حقيقتها، وستبقىٰ حالة من الوجوم تسود كل شيء.. وعندما تختفي الظلال تصبح الأشياء باهتة مهزوزة الجذور..

لم تكن تمقت المطر الاّ بعد الذي حصل لها مع ماهر وتعجّبت لقد مرّت أيام لم تره فيها... في بعض الأحيان كان يتوقف أمامها بسيارته الفارهة علّها تأتي، ولكنها كانت تتظاهر بعدم معرفته... وانبعثت في قلبها فرحة غامرة لقد جاء... ودّت لو تهتف به: ثامر!.. ولكنها لم تفعل ذلك اكتفت بالتطلّع اليه بشوق وحب بينما حبّات المطر تنزلق من فوق مظلتها.

حيّاها بابتسامة بريئة، وعندما استقلا الاتوبيس تركها تجلس الىٰ جانب النافذة، أما هو فكان يتطلّع الىٰ مناظر الطريق حيث تغتسل الاشجار بمياه المطر...

شغلها سؤال ولكنها لم تجرأ علىٰ مشافهته.. كانت تتصوّر أنه في طريقه الىٰ الجامعة... ولكنه لم يكن يحمل معه ما يدل علىٰ ذلك...

قبل أن يدور الاتوبيس حول الميدان الكبير نهض ثامر ليغادر المكان تاركاً سوسن في ذهول بعد أن حياها بارتباك..

أرادت اللحاق به ولكن كبرياءها لم يترك لها فرصة التفكير، ولم يمهلها الأتوبيس وقتاً لتتراجع فظلت تتابع خطاه من خلال الزجاج، وكان مظهره تحت المطر حزيناً

ندمت لأنها لم تعرض عليه مظلتها بالرغم من شكها في موافقته.. مضىٰ ثامر في طريقه يداه في معطفه المطري، ورأسه مكشوف للمطر..

لأول مرّة ينسحب مهزوماً... لقد فرّ من الأوتبيس.. هرب من سوسن.. وكان في الحقيقة يهرب من نفسه ان فلسفته تجاه الفتيات تهتز.. كان فيما مضىٰ ينظر اليهن

فيجدهن صنفين لا أكثر.. فتاة محتشمة تضيء عيناها بنور العفة والفضيلة.. فيهابها، وفتاة نزقة.. فارغة كدمية فيأبىٰ لنفسه التنزل.. ولكنّ سوسن قد دخلت كصنف ثالث، انه يجد في نفسه انجذاباً روحياً وعاطفياً يثير فيه ميولاً جسدية ونداءات تدفعه للتوحد مع الآخر.. ولكنه يعرف أن ذلك سيطيح بصداقته البريئة.. سوف يستحيل الى ذئب.. سيمثل نفس الدور الذي مُثّل لفاتن ابنة خالته..

أخرج ورقة صغيرة من جيبه وتلفت حواليه ليتأكد من العيون.. رقم البناية يشير الىٰ أنه قد وصل عنوان الشركة ولم يكن هناك إعلان للشركة، وعدّ خمسة طوابق ودقق النظر ولكن لا يوجد من أثر..

لم يكن هناك مجالا للتردد.. دلف الى البناية، وراح يرتقي درجات السلم بالرغم من وجود المصعد الكهربائي.. وصل الطابق الخامس لاهثاً لأنه تعمد قفز درجات السلم بشكل متواصل للتنفيس عن غضب مكبوت يعتمل في أعماقه..

رأىٰ لوحاً نحاسياً معلقاً على باب نصف مفتوح وتبين من الحروف السوداء: «ش أ ن ج م» للاستيراد...

عـندما دفـع البـاب لاح له رجـل مـتوسط العـمر حـاد القسمات، يضع علىٰ أنـفه نـظارات طـبية.. ومـن خـلف النظارات بحلق الرجل في ثامر مستسفراً:

ـ هل من خدمة؟

ـ أريد مقابلة رئيس الشركة!

ـ لقد سافر قبل أيام.

ـ الىٰ أين؟

ـ في الحقيقة انه لم يطلعني.

ـ متىٰ يعود؟

قال الرجل بامتعاض:

ـ لا أدري!

قال ثامر بحدّة:

ـ وما شغلك هنا؟

ـ أمر عجيب! حسناً أنا اقوم بدور السكرتيرة..

ـ فاتن؟!

ـ نعم فاتن.. لقد انقطعت عن العمل.. لا أدري ما الذي يجري في هذه الشركة؟! قبل يومين جاءت امـرأة تـبكي تلعن الشركة ورئيس الشركة وأولاد الحرام.

ـ هل تتغابىٰ أيها السيّد!

ـ ماذا تعني؟

ـ هل عندك بنت في عمر فاتن.

ـ أنا لا اسمح لك بالتحدث مـ.

قاطعه ثائراً:

ـ لو جاءت ابنتك في المساء تبكي كرامتها المهدورة ماكنت تفعل؟

ـ كنت ادمّر الشركة علىٰ رأس رئيسها.

ـ وهذا ما أريد أن افعله بالضبط.

حانت منه التفاتة كان باب مكتبه مغلقاً تجمع غضب مدمّر في قلبه واستحالت قبضته العارية الىٰ فأس تريد تحطيم كل الأشياء المزيفة.

ركل الباب بقدمه.. وظهر مكتب الرئيس فخماً وكان الرئيس المحترم ينظر من علىٰ الجدار صورة مسمّرة كتمثال قاس.. أمسك بقاعدة العلم المرمرية وقذف بها الوجه المزيّف ليسقط مهشماً فوق أرضية الغرفة المفروشة بسجّاد ثمين.

كان الرجل ينظر بحزن الىٰ ثامر.. لقد انفجر البركان

لينفس عن غضب مكبوت في تحطيم الزجاج.. قال بلهجة فيها نصح:

ـ اذهب يا بني.. لأنني سأتصل بالشرطة.. انني مسؤول عن ممتلكات الشركة..

قال ذلك واتجه الىٰ جهاز الهاتف..

وسمع ثامر كلمات الرجل، فيها مزيج من المسؤولية والتعاطف:

ـ ألو.. دائرة الشرطة.. اقتحم شاب في العشرين من عمره مكتب شركة: «أ ن ج م ...

لم استطع أن اتعرّفه بدقّة.. لقد حصل كل شيء في لحظات.. يرتدي بنطال جينز.. و..

اكتفى ثامر بابتسامة مرّه وغادر المبنىٰ.. وشعر بانه يتنفس ملء صدره.

انه اكثر ما يكرهه بناطيل الجينز: فلماذا قال الرجل انه يرتدي بنطال جينز؟!

# 11

كانت سوسن علىٰ وشك أن ترفع سماعة الهاتف لتتصل عندما رن جرس الباب... وكان ذلك عجيباً وحاولت سوسن وهي تتجه الى الباب أن تحدس القادم...

فأبوها ومنذ أن تزوّج مرّة أخرى لم يعد يزورها. كان يكتفي بالاتصال هاتفياً في كل شهر ويسأل عن احتياجاتها.

فتحت الباب وظهر وجه حزين لامرأة.. قالت المرأة:

ـ أنت سوسن؟

ـ نعم.. تفضلي يا خالة.

ـ أنا أم ليلىٰ.. زميلتك في المدرسة.

ـ؟!!

ـ لقد وجدت عنوانك في غرفة ليلىٰ...

ـ ماذا حصل؟

ـ ليلىٰ لم تعد الى المنزل أمس... اختفت... لا أدري.

لقد مضىٰ يومان على غيابها ـ انها لم تخبرني بشيء.

أنت صديقتها قولي أي شيء يمكن أن تكون له فائدة.

ـ رأيتها اخر مرّة في حالة عصبية وتشاجرت مع مدّرسة الفيزياء... وطلبت مني بعض النقود... هل استطيع ان أسأل؟

ـ تفضلي يا ابنتي.

ـ هل تتشاجرين مع والدها أمامها؟

أطرقت برأسها:

ـ ليلىٰ بنت يتيمة... مات والدها قبل خمس سنين كم تعذبت من أجل لقمة العيش يا ابنتي!

قالت ذلك وناولت جريدة الصباح.

ـ لقد أعلنت عن ضياع ابنتي.. بنتي ضاعت يا سوسن ولا أظن أنها تعود.

ـ ثقي بالله يا خالة... قد تغيب ولكنها ستعود في النهاية.

أغلقت سوسن الباب برفق وعادت أدراجها الى غرفتها حدّقت في صورة ليلىٰ... كم هي حلوة وبريئة؟.. يالقسوة الزمن!

تساءلت في نفسها: هل تعرف أمّها أنها تتعاطىٰ المخدّرات؟!

أين هذا الوجه الذي يطفح بالنور والحيوية من وجهها الآن؟.. أين هذه العينان المتألقتان من عينيها المنطفئتين القلقتين؟!

واستعادت كلمات أمّها قبل لحظات: لقد ضاعت إبنتي.... ضاعت!

تذكّرت سوسن أنها حدثتها مرّة عن «سعيد» وصادفته مرّة معها لقد بدا لها شاباً تافهاً... نظر اليها كما ينظر الصياد الى فريسة جديدة!

لم تضع وقتها.. ارتدت بدلة الخروج، وانطلقت خلف المرأة المسكينة وهتفت جدّتها بصوت ضعيف:

ـ الى أين يا سوسن؟!

ـ سأعود حالاً يا جدّتي.

وضاع جوابها مع دوي الباب وهو ينصفق وراءها

بعنف!

كانت أم ليلىٰ تتصفح الوجوه علّها تعثر على ابنتها.. وسمعت صوتاً يناديها فالتفت:

ـ سوسن أنت يا ابنتي!

قالت سوسن كل شيء... كل ما لديها من معلومات كانت تعدّها من الأسرار... باحت للأم المفجوعة بكل شيء.. اخبرتها عن تعاطيها المخدّرات.. عن تغيبّها بعض ساعات الدراسة.. عن أهمالها.. عن سعيد وعن جرح في معصمها.. وكانت الأم تبكي كغيمة شتائية ـ تهتف بعبرتها:

ـ أنا المقصّرة.. ما كان علي أن اتزوّج... ولكن ماذا بوسعي أن أفعل... من أين لي أن انفق على ليلىٰ... ألا لعنة الله عليك يا «عبد الجبار»...

واستأنفت بعد أن مسحت دموعها:

ـ لقد سبّ أباها قبل أيام فحطمت زجاج النافذة بكفّها.

وعادت سوسن تبكي.. تبكي ضياع ليلىٰ تبكي حيرتها.. حيرة هذا الجيل الذي لا يدري أين طريقه؟

لم تذهب مباشرة الى المنزل ظلّت تدور في

الأرصفة وكانت بعض السيارات الفارهة تتمهل وهي تمرّ قربها.. عندما عادت الى المنزل كادت تتكوم في باحة البيت إعياءً...

شمس الأصيل تغمر مياه الحوض الصغير وسط الباحة.. غرفت من المياه الباردة غرفة رشت بها وجهها الملتهب...

كان منظر الجدّة وهي تجلس فوق سجّادتها الملوّنة تستقبل القبلة وتترقب وقت الصلاة موحياً... بين يديها كتاب الله، هدية السماء الىٰ الأرض.. أشعة الغروب تغمر وجه الجدّة الهادئ وهي تتلو الآيات من وراء نظاراتها السميكة..

وغبطت سوسن جدّتها على تلك السكينة والطمأنينة... جلست الى جنب جدّتها، وراحت تتأمل بخشوع آيات من سورة يوسف:

***وراودته الّتي هو في بيتها عن نفسه.***

***وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك.***

***قال معاذ الله إنّه ربّي... أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون.***

***ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأىٰ برهان ربّه.***

***كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين.***

*وآستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيّدها لدى الباب.*
*قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلّا أن يسجن أو عذاب أليم.*
*قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها.*
*إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين.*
*وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصّادقين.*
*فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنّه من كيدكنّ... إنّ كيدكنّ عظيم.*
*يوسف أعرض عن هذا وآستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين.*

واستعادت ذاكرتها تفاصيل ذلك اليوم المطير لقد انقذها الله من ذئب بشري..

قالت سوسن تبث جدّتها ما يموج في أعماقها:

ـ أنا خائفة يا جدّتي.. خائفة من نفسي... أنا ياجدّتي وحيدة ليس لي أحد.. أنا يا جدّتي لا أنام في الليل.

قالت الجدّة بحنان:

ـ لانك يا ابنتي لا تصلّين... لقد اوصتني أمّك رحمها الله بتربيتك... وسكتت قليلا كأنها تتذكر كلمات قديمة:

ـ كان لأمّك رحمها الله عباءة صلاة بيضاء... اذا احتجت اليها فهي هناك في الصندوق القديم.

❀ ❀ ❀

# 12

سمعت سوسن من سميرة أن سهيل سيقدم للمحاكمة بتهمة السطو على سيّارة... ظهرت على سميرة مشاعر مزيجة بين الدهشة والقلق... في الطريق حاولت ان تجد مبرراً لما ارتكبه سهيل قالت:

ـ سهيل من اسرة ثرية.. انني اتعجب لماذا فعل ذلك

اجابت سوسن:

ـ دوافع السرقة ليست الحاجة دائماً.. من يدري؟ ربّما تكون هناك اسباب لا نعرفها.

كانت الباحة التي تؤدي الى صالة المحكمة تضم خليطاً من البشر.. أناس لجأوا الى القانون لحلّ مشكلاتهم وفض نزاعاتهم التي لا تنتهي.

ـ ياللدهشة!!

هتفت سوسن وهي تلمح ثامر يقف عند شجرة كالتبوس عملاقة، اتجهت اليه:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ جئت للادلاء بشهادة... وأنت؟

ـ اتذكر سهيل في الحفلة.. إنه متهم بالسطو على سيّارة... هل تعرف صاحب السيّارة؟

ـ كلّا.. لقد شهدت عملية السطو فقط.

لمحت سميرة سهيل ومعه والدته فاقتربت منهما... كانت الام على وشك أن تنهار وهي ترىٰ في معصمه قيوداً قاسية... قالت الأم كأنها تحاول أن تفك اللغز العجيب:

ـ لقد هيأت لك كل شيء... كل ما تحتاج اليه.

ثار سهيل في وجهها:

ـ كل هذا تقصيركم أنت وأبي.. أبي الذي لا أراه الّا مرّة واحد في الشهر.. حتىٰ عندما أزوره في مكتبه.. كان يصرفني لأنه غارق في حساباته يخاف على شركته...

ـ كفى! هل هذا جزاؤك لي؟..

أدار سهيل وجهه غاضباً ولم يقل شيئاً.

عندما بدأت المحاكمة لم يكن الشاكي قد حضر بعد، وقرأ القاضي ورقة الاتهام..

كان سهيل قد رفض وكيلاً للدفاع، وبدأ الحوار:

ـ هل تعرف نوع الاتهام الذي اعتقلت بسببه؟

ـ السطو على سيّارة.

ـ هل فعلت هذا بمفردك؟

بتحريض من أصدقائي.

ـ ما الذي دفعك الى السرقة؟ وأنت من عائلة غنية!

ـ الحقيقة انني احصل على كل ما أريد.. كما إن ابي يعتقد بضرورة توفير كل شيء.. أي شيء.. حتى عندما طلبت منه أن استقل في حياتي اشترىٰ لي شقة جميلة مفروشة... لقد اصبحت حياتي جحيماً.. أبي يتشاجر كل يوم مع أمي... لا يمرّ يوم دون ان أسمع فيه صراخ امي او تهديدات أبي... الّا بعد انتقالي الى الشقّة.. ثم سمعت بخبر الطلاق فيما بعد.

ـ من أخبرك؟

ـ كلاهما.

ـ من ينفق عليك؟

ـ كلاهما.. ولم أكن لأحتاج شيئاً اني الأبـن الوحـيد لهما..

ـ فلماذا لجأت الى السطو والسرقة؟!

ـ كما ذكرت أصدقائي.

ـ كيف حصل ذلك؟

كنت قد تعرّفت على أصدقاء.. وكانت علاقتنا تزداد كل يوم أصبحنا مثل الشلّة.. نذهب معاً الى السينما نرتاد المطاعم والمتنزّهات ونسهر جميعاً في الشـقة الى وقت متأخر... ذات ليلة قال نـاصر وهـو يـتبادل النـظرات مـع الاصدقاء:

ـ هل تعمل معنا؟

قلت:

ـ أي عمل؟

قال:

ـ سنبدأ عملنا غداً... انه عمل يدرّ عـلينا مـالاً وفـيراً اضافة الى متعته.

سألت:

ـ ماذا تعني؟

قال:

ـ انه اشبه بلعبة القط والفأر... نسطو ونفرّ ونترك الشرطة حائرة تبحث دون فائدة.. دراجات.. سيّارات.. وهناك أماكن تستقبل مثل هذه البضائع.. ايه ما رأيك؟

ـ وافقت طبعاً؟

ـ نعم

ـ كم سيّارة؟

ـ أنا شخصياً سطوت وبمساعدة من أصدقائي على دراجتين وسيّارة...

أطرقت الأم برأسها، عندما وصل الشاكي..

خفق قلب سوسن.. انه ليس سوى ماهر ونهض ثامر واتجه الى مكان الشهود...

شعرت سوسن بالاستياء من تصرّف ثامر.. ولكنها عذرته لأنه لا يعرف ماهر... ان هذا الذئب يستحق أشدّ العقوبات!

قال القاضي وقد افلتت منه نظرة ساخرة:

ـ ان السيد ثامر قد شهد عملية السطو على السيّارة..

ثم وجه خطابه اليه مباشرة:

ـ ولكن ياسيد ثامر لقد اعترف المتهم بكل شيء... ولا داعي لاضاءة شمعة في رابعة النهار...

ارتفعت ضحكات قصيرة سرعان ما خمدت أمام منظر ثامر الشاب الذي فرض احترامه من خلال سلوكه وهو ينظر الى القاضي.. والى المتهم والىٰ الشاكي... ساد صمت مهيب احتراماً لصمت ثامر الذي ينبئ عن كلمات منقوعة بغضب مكبوت:

ـ سيدي القاضي.. ان هذا الشاب الذي يمثل امامكم كمتهم هو في الحقيقة ضحية.. انه ضحية وضع اجتماعي مختلّ...

والتفت الىٰ ماهر وقد هدر صوته:

ـ وإن المجرم الحقيقي هو رئيس الشركة المحترم ماهر إحسان كريم... ان على العدالة أن تحاكمه كأكبر لص... ان هذا الماثل أمامكم قد سرق أعزّ ما تملكه الفتاة العذراء...

وخفق قلب سوسن... ماذا تسمع.. يالهول ما ترىٰ وكان صوت ثامر ما يزال يهدرقي قاعة المحكمة:

ـ انه هو الآخر فارّ من وجه العدالة... من يأخذ حق

«فاتن» وغيرها من الفتيات البريئات من أمثال هؤلاء الذئاب الأوغاد...

لم يستطع ماهر تحمّل المزيد وشعر أن العيون تحاصره فغادر صالة المحكمه مذعوراً لا يكاد يبصر موضع قدميه... وأعلن القاضي إرجاء قرار الحكم...

وخارج الصالة روىٰ ثامر قصة ابنة خالته فاتن... قالت سوسن بشجاعة:

ـ كنت على وشك أن اكون إحدىٰ ضحايا هؤلاء الأنذال ولكن الله سلّم.. ما زلت أتذكر كل تفاصيل ذلك اليوم الممطر... من أجل هذا اصبحت أنفر من المطر...

قال ثامر ممازحاً:

ـ يبدو إن صداقتنا تموت في المطر.

ـ ماذا تعني!

ـ أنا احتفل بالمطر كعيد وأنت تغرقين فيه كمصيبة.

قال مبتسمة بودّ:

ـ سأسعى للتصالح مع المطر... من أجلك.

ـ المطر يغسل الاشجار يغسل الوجوه وفوق هذا يوفر للمرء فرصة البكاء دون أن يحسّ به أحد.

ـ أنت شاعر يا ثامر؟!

وقبل أن يجيب كان موعد جلسة النطق بقرار الحكم قد حانت... ساد صمت مهيب وكان القاضي يتهيأ للنطق فيما بدا سهيل في حالة مدمّرة من القلق.

ـ بالنظر الى شعور المتهم بالندم العميق، وغياب الشاكي فقد حكمت المحكمة بتغريم المتهم ثلث الخسائر والافراج عنه بكفالة...

شهقت الأم بدموع الفرح، وابتسم سهيل لتشرق فرحته من بين غيوم القلق والحزن... ونظر الجميع الى ثامر كمحام للشباب في المستقبل.

# 13

عندما استيقظتْ ذلك الصباح من أخريات الخريف كانت الشمس قد أطلّت من خلال النافذة الزجاجية، تقدّمت من المرآة وراحت تتطلع من خلال عينين نصف مغمضتين الىٰ صورتها المشوشة... ركزت النظر على عينيها كانت محمرّتين تعكسان بوهج صراعها المرير مع الأرق...

كانت تسلم نفسها الى قرص صغير أو قرصين أحياناً لتغمض عينيها في نوم بلا أحلام هكذا عوّدت نفسها.. ولكن حديث ثامر وهما يغادران بناية محكمة الجزاء عن وثنية الانسان في القرن العشرين.. فجرّ في قرارة نفسها غضباً... لقد تحدث ثامر حوالي ساعة كاملة عن عبوديات كثيرة... عبودية للسيجارة.. عبودية للاقراص المنومة،

وعبودية للغرائز الحيوانية، وعبودية للمناصب.. ان ما يقوله ثامر لا يجانب الحقيقة.. استعادت في تلك الساعة منظر ليلىٰ وهي تتوسل وتكاد تقبّل يديها من أجل بعض النقود لتشتري به شيئاً تحتاجه.. ثم عرفت فيما بعد انها تتعاطىٰ نوعاً من المخدّرات!

قررت سوسن لحظة وضعت قدمها في المنزل وهي تعود انها لن تتناول قرصاً واحداً الى الأبد... وقد كلّفها ذلك صراعاً مريراً مع الأرق... أصبح رأسها ميداناً لخيول مجنونة تركض دون احساس بالتعب.. أيقظت جدّتها شكت لها:

ـ لا استطيع النوم ياجدّتي!

قالت الجدّة وهي بين عالم اليقظة والنوم:

ـ عندما كنا صغاراً.. كنا نغمض عيوننا.. ونسوق قطعان الماشية عبر قنطرة النهر الصغير.. جرّبي ذلك يا سوسن...

وحاولت سوسن تجربة إرث الاجداد... ساقت عشرات الاغنام... وعشرات الأبقار.. ولكن دون جدوى... طردت كل الخيول المجنونة من الوادي

حصرتها في حظيرة واحدة... وكان الزمن يمرّ واللحظات تتابع يسحب بعضها بعضاً كأغنام صغيرة تعبر النهر.

ومع صياح الديك الذي يوقظ جدّتها في الصباح نامت سوسن...

هاهي تستيقظ متأخرة جداً ولكن مع إحساسٍ بالحيوية وشهية لتناول الافطار.. لم تتناول الجبنة كما اعتادت كل يوم... وقلت لنفسها بيضتين في الزبدة.. واستعاضت عن خبز الافران الحديثة برغيف تفضله الجدّة عادة... وجدته لذيذاً حتى انها قالت لجدتها التي كانت تجلس هادئة في غمرة اشعة الصباح الدافئة:

ـ ما اطيبه من خبز... أنت على حق في ذهابك الى الحيّ الشعبي من أجله قالت الجدّة وهي تشعر بالزهو:

ـ اتعجب يا ابنتي من هذا الخبز الحديث... ليس فيه طعم! كيف يأكله الناس؟ انهم لا يتركون العجين مدّة من أجل أن يختمر... رغيف التنور الشعبي لا يفوقه شيء... تجدين فيه رائحة الحطب.. فيه...

ـ يا جدّتي هذا عصر السرعة... لا وقت عند الناس لكي يتركوا العجين يختمر!

ـ ولماذا يركضون هكذا ويلهثون؟!

ـ لأن الوقت من ذهب يا جدّتي! وهم لا يريدون أن يخسروا هذا الذهب بلا طائل!

ـ من أجل أي شيء يركضون كالمجانين؟!

ـ من أجل المال...

ـ لماذا يجمعون المال والنقود؟

ـ من أجل أن يرتاحوا في نهاية عمرهم؟

ـ يا ابنتي الناس في نهاية العمر ماذا يصنعون بالمال وماذا يصنع المال لهم؟!

لاذت الحفيدة بالصمت.. كم هي عميقة كلمات الجدّة.. الحياة زادتها خبرة... انها تنتمي الى الجيل الذي يرىٰ في التلفاز مثلاً مهرّجاً يغتال لحظات التأمل المفعمة بالسعادة...

وأدركت سوسن لماذا كانت جدّتها تقضي بعض الوقت الى جانب الحوض وتراقب السمكتين الصغيرتين.. أو تشتغل في الحديقة الصغيرة وربّما أمضت زمناً تراقب فراشة أو دعسوقة أو نملة... أو تمسح على رأس قطة صغيرة وتقدّم لها صحناً مليئاً باللبن...

واستعادت سوسن حواراً قديماً مع جدّتها عندما كانت تنهمك بتشذيب شجرة زيتون صغيرة كانت تريد استفزازها فقط عندما قالت لها ذلك الصباح:

ـ يا جدّتي هل تطمعين بثمرها وأنت تنهمكين هكذا في العمل؟

ـ انت تفكرين مثل أبيك... لا يزورنا لأنه سيضيع وقته بلا عمل ولا فائدة!... إذا كنت افكر مثل ابني..

ـ إكملي يا جدّتي...

ـ ما تحملت ما تحملت في سبيلك.. لقد كنت صغيرة جداً عندما توفيت والدتك... والبنت عندما تكبر تتزوج وتذهب الى بيت آخر.

ـ لماذا تفعلين ذلك اذن... اقصد لماذا تحبين...

قاطعتها الجدّة بنفاد صبر:

ـ يا لهذا الجيل الذي لا يحب الّا نفسه... العجب منك يا سوسن كيف ستكون الحياة بلا محبّة...

ورأت فراشة بيضاء تحط فوق زهرة نيلوفر:

ـ ألا تسمعين حديث الفراشة هذه.

ـ كلا يا جدّتي انني لا اسمع شيئاً.

ـ أتـدرين لمـاذا لأنكـم لا تـحسنون سـوى الثـرثرة والضوضاء.. لو تسكتون قليلاً لسمعتم أحاديث كثيرة...

يا ابنتي عندما افتح الصندوق القديم تحدثني الاشياء التي فيه... فوطة امّك.. وساعة جدّك رحمه الله.

الحياة يا ابنتي ليست في هذا الركض واللـهاث وراء المال والنقود... الحياة أن يعرف الانسان الطريق..

اتجهت الجدّة الى الحوض وغطست كفيها في المياه المنعشة وقالت في وداد:

ـ تعالي يا ابنتي لاحكي لك ما رأيت في المنام قـبل ليـال! جـلست سـوسن عـلى حـافة الحـوض... وكـانت السمكتان تمرحان بسعادة.. أو هكذا بدا لها.. فيما كـانت الجدّة تتسلىٰ بغرف الماء وتتحدث بهدوء:

ـ رأيت في المنام يا ابنتي كأني فـي سـوق مـزدحمة ورأيت الناس يزدحمون على شراء لحـم نـتن الرائـحة... والقصاب الغليظ يذودهم بساطوره فلا يزيدهم الّا تهالكاً عليه!... ورأيت بالقرب منه قصاباً طيباً يعرض لحماً طـيّباً له، وليس عليه أحد فعجبت من ذلك ومـضيت.. فـرأيت نفسي في غابة ورأيت حطاباً يجمع الحطب حتى اذا جمع

منه الكثير شدّه بالحبل فاراد حمله فإذا هو لا يستطيع ذلك...

فيفلّ الحبل ويروح يحطب من جديد ويضيف الى «كارته» ثم يشدّه ليحملها... وهكذا... فعجبت من هذا الحطاب لا يخفف عن حمله بل يزيد!

سكتت الجدّة وكفت عن غرف الماء وقالت بعد لحظات:

ـ الحياة يا ابنتي هكذا ازدحام على الحرام... والانسان لا يكف عن احتطاب الآثام لينوء بحملها...

واعتصمت سوسن بالصمت وكانت تصغي في قرارة نفسها الى دوي الانقاض في أعماقها.. ان شيئاً في صلابة الكونكريت وقسوته يتحطّم.. وأن نفسها تشرق بنور لا يشبه أضواء الشمس ولا أنوار القمر وتراءىٰ لها وجه ثامر يبتسم بود...

# 14

جاءت أم فاتن وفي وجهها المكدود فرحة تكاد تشرق من خلال عينيها... حيّت باحترام زوج أختها بالرغم من الجفاء الذي قابلها به... إنّه طيّب القلب ولكنه لم ينس بعد عناد ابنتها فاتن... ثم انها جاءت في مهمّه.. لهذا جلست عند أختها وتبادلت معها عبارات ودودة.. ثم همست وهي تتناول رشفة من القهوة:

ـ اخبرتنا الطبيبة انها متأكدة من عدم وجود آثار للحمل.

همست أم ثامر بارتياح:

ـ الحمد لله هو ستّار العيوب...

تنحنحت وهي تمسح على رأس أحمد الذي جلس في حضنها.. قالت الأم مؤنبة:

ـ لا تضايق خالتك..

قالت الخالة وهي تقبّل أحمد:

ـ دعيه يا أختي تعلمين كم أحبه.. أكثر من ابنتي.. ثامر أيضاً أحبّه اكثر من فاتن..

لاذت بالصمت.. ولم تجرأ على الافصاح عما تريد.

قالت أم ثامر وهي تصرف أحمد:

ـ اذهب الىٰ والدك.. قولي يا أختي... لماذا تسكتين؟

ـ لا شيء.. جئت لا سلّم عليك فقط وأطمأن عليكم.

ـ أعرف ذلك.. ولكن الأخت تعرف أختها.

تشجعت أم فاتن لتقول:

ـ لقد سترنا الله.. والله يحبّ الساترين..

ـ لم أقل شيئاً لزوجي أبداً بل لم أذكر له أنها تعمل... أنت تعرفين حساسيته..

ـ نعم أنا مطمئنة من هذا الجانب.. ولكن تعرفين يا أختي.. الناس لا ترحم وابنتي لاتستطيع الزواج.. والأقربون أولىٰ بالمعروف والله يحب الساترين..

أدركت أم ثامر ما تريده أختها قالت:

ـ ان فاتن مثل ابنتي.. ثم ان ماحصل لايخدش عفتها..

ولكنك تعرفين زوجي ما يزال غاضباً من فاتن لأنها ردّت طلبه بعدم دخول الجامعة..

ـ ما رأيك أنت؟

ـ رأيي رأيك.. وفاتن ليست غريبةً..

ـ تحدّثي مع زوجك فلعل الله يفتح..

رنّ جرس الباب.. وخفّت أم ثامر لترىٰ ربما يكون ثامر وقد نسي مفتاح المنزل وربما جارتهم التي نزلت حديثاً..

فتحت الباب ليطالعها وجه جميل لفتاة في السابعة عشرة من ربيع العمر ترتدي ثياباً عصرية روعي فيها الحشمة قبل الاناقة ارتسمت علىٰ وجه أم ثامر علامات استفهام هل لجارتهم فتاة بهذا العمر تساءلت:

ـ جيراننا الجدد؟!

ـ أنت أم ثامر.

ـ نعم وأنت؟

ـ اسمي سوسن تعرّفت علىٰ ابنك ثامر.. انه شاب مهذّب.

سكتت لحظات فيما كانت أم ثامر تتطلع اليها في

دهشة وذهول ممزوجة بقدر من الغبطة.. فهذه فتاة جميلة يبدو عليها أنها من أصل ونسب.. استأنفت سوسن:

ـ والحقيقة أنني ارغب في الزواج معه!!

كادت أم ثامر تسقط، وظلّت لحظات لا تعرف ماذا تفعل!!. أصاب مخها ما يشبه الدوار ولكنها أفاقت على صوت خشن:

ـ أم ثامر!

كان أبو ثامر يتطلع من وراء النافذة فلمح سوسن وهي تنحني لأم ثامر وتودّعها..

عادت أم ثامر تتعثر وجلست عند حافة الحديقة فتحت صنبور الماء ورشّت قليلاً من الماء على وجهها.. وسمعت زوجها:

ـ من تكون تلك البنت؟

أجابت بعد لحظات سكوت:

ـ ابنة الجيران.

ـ ما حاجتها؟

ـ لماذا هذه الأسئلة.. الله في عوني لو أحالوك على التقاعد!

كان أبو ثامر يتعمد الالحاح في الاسئلة معرّضاً بأم فاتن ونهضت أم فاتن لتلحق بأختها في الحديقة وتستأذنها بالذهاب.

ـ الىٰ أين؟!

ـ لقد تأخرت كثيراً وبيتنا بعيد..

خلا البيت وساد صمت أرجاء المنزل وكان أحمد غافياً والىٰ جانبه أوراق متناثرة ومقص.. وكان قد عجز عن صنع أرنب ورقي كالذي صنعه أبوه!

قال أبو ثامر دون مقدمات:

ـ يجب أن أعرف ما يجري في بيتي.. لماذا جاءت أختك وبم كانت تهمس لك؟!

ـ لقد اصبحت مثل الأطفال لا تكف عن السؤال.. سأخبرك، جاءت لتقول لماذا لا نتقدم لخطبة ابنتها؟

ـ فاتن العنيدة؟

ـ وماذا في ذلك؟

ـ مستحيل.. بعد الذي سمعته منها.. هل تركت الجامعة؟

ـ كلاّ.

ـ أنا عند شرطي وإذا أردت الحقيقة لقد عزفت نفسي منها.. أنا أريد عروساً لا تعرف غير الطاعة..

ـ هذا زمان جديد يا رجل.. هل تريد أن تكون فاتن مثلي؟!

ـ ولم لا؟!

ـ هل رأيت تلك الفتاة التي طرقت بابنا قبل ساعة؟

ـ ابنة الجيران؟

ـ لقد قلت ذلك في حضور أختي.. انني لم أرها إلاّ هذه المرّة؟

ـ فمن تكون إذن؟!

ـ اسمها سوسن هكذا عرّفت نفسها.. تعرف ثامر..

نظرت الىٰ وجه زوجها لترىٰ ردود فعله وقالت بعد لحظات:

ـ قالت انها تحب ثامر وترغب في الزواج منه.

سقط فكه الأسفل من الدهشة، لم يكن يتوقع ذلك أبداً.. وظنّ في البداية ان زوجته تمزح!

ـ أنت تمزحين حتماً.. غير معقول!. غير معقول!

ـ قلت لك اننا في زمان جديد كل شيء يتغير..

ظهر ثامر فجأة عند الباب، ووقعت عينا الأب عـليه فصرخ الأب ثائراً:

ـ ومتىٰ تأتي لتطلب يده يا ترى؟!

وأردف وهو ما يزال ثائراً:

ـ تقولين الزمان يتغير؟! لا يا امرأة.. الناس يتغيّرون.. الأولاد يصبحون بنات والبنات يتحولن الىٰ أولاد!!

قال ذلك ودخل حجرته ليصفق بابها وراءه بعنف.

❀ ❀ ❀

# 15

ظهرت ليلىٰ في المدرسة فجأة.. لمحتها سوسن عن بعد فخفت اليها لتعانقها بود.. ولكنها ارتـدّت الىٰ الوراء في ذعر.. انها ليست ليلىٰ.. ليلىٰ التي كانت تموج حـيوية عيناها أصبحتا اكثر قلقاً وغادر اللون المتورّد أمام صفرة تشبه صفرة مرضى السل..

هتفت:

ـ أين كنت ياليلىٰ.. لقد قلقت من أجلك.

اجابت بفتور:

ـ لماذا هذا التمثيل؟!

ـ أنا زميلتك وصديقتك!!

ـ لو كنت حقاً صديقة.. لما بخلت علي ببعض النقود وكنتُ فـي أمس الحـاجة.. أليس الصـديق يـعرف وقت

الضيق؟!

ـ أنا لا اريد لك الانزلاق أكثر من هـذا!.. أم تـظنيني غبية لا أعرف..

وسكـتت لا تـريد أن تـجرح مشـاعرها ثـم قـالت متودّدة:

ـ لا تهربي من الواقع الىٰ الخيال..

أجابت ليلىٰ في سخرية..

ـ يا لك من فيلسوفة!!

يبدو أنك تتلقين دروساً خاصة.. لم أكن اصدق ذلك عندما سمعت..

قالت سوسن وهي تكبت غضباً:

ـ ان علاقتنا بريئة.. ليس فيها ما يخجل الانسان.

ـ كفى هراءً.. انني اعرف جنس الرجال سـعيد يشـبه ثامر وهما يشبهان أبي..

قاطعتها:

ـ تقارنين ثامر بخلقه وثقافته بسعيد التـافه.. كـما ان زوج أمك لا يصبح لك أبـاً.. حـاولي أن تكـوني واقـعية ياليلىٰ.

ـ لا تتحدثي عن الواقع.. لا أكره في الدنيا شيئاً مثل الواقع... دعيني في عالمي الخاص.. لقد عثرت على جنتي الضائعة قالت سوسن بأسف:

ـ الحياة التي تعيشينها ليست جنّة.. انها الجحيم..

أجابت بألم:

ـ الواقع هو الجحيم.. الواقع هو أني اتلقىٰ بذلّ ركلات أبي واهاناته وكلماته البذيئة.. الواقع أن أرىٰ أمي ذليلة تبكي عند قدميه حتىٰ لا يطردني.. الواقع أن صديقتي لا تقرضني بعض النقود وأنا اتلوّىٰ ألماً.. أرجوك يا سوسن دعيني.

ـ ما هذا الهذيان؟!

ـ أنت لا تعرفين مقدار سعادتي.. لقد عثرت علىٰ جنّتي أنت لا تدرين كم هي ساحرة كلمات سعيد عن الحب ونحن ندخن سوّية.. ما أجملها من ليلة؟!

اجتاحت قلب سوسن موجة من غضب مدّمر تجمع في كفّها التي ارتفعت فجأة لتهوي بعنف على خد ليلى الذي غادره وهج الشباب..

فوجئت ليلىٰ وارتدّت خائفة ثم قالت بألم:

ـ هـذا هـو الواقـع الذي أهـرب مـنه.. انـني أكـرهه أكرهك.. أكره أبي.. أكره الجميع..

ـ تسمرت سوسن في مكانها في شرود وحـيرة ولم تنتبه الىٰ نفسها إلاّ بعد أن رنّ الجرس يعلن بـدء الحـصّة الأولى..

تأخرت ليلىٰ فـي الحـضور.. وفـيما كـانت مـدرّسة الفيزياء تعلن الأسماء دخلت ليلى دون استئذان.. نظرت اليها المـدرّسة بـاستياء وحـدّقت فـي حـذائـها الجـديد وحقيبتها الثمينة..

ـ أين كنت ياليلىٰ؟

أجابت دون اكتراث:

ـ في المغاسل.

ـ ألا تجدين عذراً آخر؟!

جلست ليلىٰ في مكانها وأدارت ظهرها الىٰ زميلتها في المقعد.. لم تكن لتصغي الىٰ الدرس أبداً.. كانت تنظر الىٰ ساعتها في كل لحـظة.. حـتىٰ سـوسن هـي الأخـرىٰ سرت اليها العدوى كانت تختلس النظرات الىٰ صديقتها التي بدت عصبية الىٰ حد ما..

استحال الصف الىٰ سجن في عينيها.. والمدرّسة الىٰ سجّان وزميلاتها الىٰ مخلوقات مخيفة.. رفعت اصبعها مستأذنة فقالت المدرّسة في لهجة متهكمة.

ـ الىٰ المغاسل اليس كذلك ياليلىٰ؟!

وانفجرت البنات في ضحكات ساخرة وكانت ليلىٰ تغادر بارتباك ظاهر مقعدها..

ـ لشدّما تغيّرت ليلىٰ.

همست ذلك في نفسها سوسن وكانت تداعيات ذكريات مضت تظهر وتختفي:

ـ ليلىٰ سليطة اللسان التي تخشى لسانها المدرّسات جميعاً مالذي أطفأ في أعماقها تلك الروح الوثّابة؟! أين دعابتها ومرحها من الذي قتل في نفسها الأمل؟!

انتبهت الىٰ صوت المدرّسة:

ـ ما الذي جرىٰ يا بنات تأخرت ليلىٰ كثيراً.. اذهبي يا سوسن خلفها..

خفّت سوسن مسرعة باتجاه المغاسل.. وهبطت درجات السلم المعدودة في ثانية..

تعمدت أن تحدث ضوضاء وهي تدخل المرافق

الصحية... الصمت يغمر المكان حتى انها شعرت بالرهبة بسبب الظلمة المفاجئة وبرودة المكان.. هتفت لتبعد ماخامرها من خوف:

ـ ليلىٰ.. ليلىٰ!

ولم تسمع جواباً.. كانت الأبواب مشرعة باستثناء باب واحدة في أقصى اليسار.. طرقت الباب وأيضاً لم تسمع الجواب!.. جرّبت مرّة أخرىٰ ونادت بصوت منخفض:

ـ ليلىٰ:

كان الباب موارباً فقط.. دفعته ببطْ لتفاجأ بمنظر رهيب.. كانت ليلىٰ فاقدة الوعي تماماً والىٰ جانبها ابرة طبية.. وأدركت سوسن كل شيء خفق قلبها بشدّة كطبل أفريقي مجنون!! ستجلب علىٰ صديقتها الفضيحة لهذا عمدت الىٰ اخفاء الأبرة تحت نافذة مكسورة.. وهرعت نحو الادارة لتخبر المديرة بما حصل..

وخفت الناظرة ومعها سوسن الىٰ المكان لتحملان ليلىٰ فيما راحت المديرة تدير قرص الهاتف في ارتباك وعجلة..

وكان الظن ان ليلىٰ مصابة بـفقر الدم بسـبب صـفرة وجهها.. اما سوسن فقد انسحبت الىٰ نفسها وكان صوت سيارة الاسعاف يتلاشى في أذنيها شيئاً فشيئاً..

# 16

كان فضاء المنزل مشحوناً ينذر بوقوع الانفجار.. فقد كان أبو ثامر يدخن بعصبية واضحة.. عمله المرهق في شركة انتاج للزيوت جعله يتلقىٰ الأوامر من مهندس شاب استخدم حديثاً وهو الذي مضت على خدمته عشرون سنة!.

ولم تكن تجربته لتشفع له أمام نظريات المهندس الجديد وكانت الادارة تقف دائماً الى جانب المهندس والكلمات التي اعتاد سماعها وهو يدافع عن آرائه بحرارة: أنت تنتمي الى جيل قديم.. العالم يتقدم وعلى الشركة أن تواكب حركة العلوم..

لقد بدأ ينفر من هذا المهندس.. بالرغم من انه لا يحس بالكراهية تجاهه.. انه شاب مهذب شاهده مرّة

يصلّي خلف مكتبه في زاوية تشبه المحراب فعاد أدراجه لقد تذكر أنه نسي صلاته كعادته لكثرة انهماكه بالعمل...

يعجبه في العمال الطاعة العمياء وينظر الىٰ من يبدي منهم اقتراحاً ما في تطوير بعض الآلات بضيق...

انتبه الى نفسه على خطى زوجته وهي تضع أمامه كوباً من الشاي...

انسحبت زوجته بسرعة ولم تترك له فرصّة يجد فيها ذريعة لينفّس بها عما يموج في أعماقه من غيظ... لم يتحمل اكثر من هذا فصاح بقدر من الفظاظة:

ـ ثامر!

كان ثامر وقد انزوى في غرفته بحجة المطالعة يتوقع ان يناديه أبوه في أية لحظة لهذا كان يبحلق في كتاب مفتوح دون قراءة... وكانت الكلمات والسطور تتداخل أمام عينيه.. نهض بارتباك وغادر غرفته وليمثل أمام والده الذي سحب نفساً عميقاً من سيجارته قبل أن تتفتت بين اصبعيه داخل منفضة السجائر، والتي بدت متخمة بالأعقاب المحترقة؟

ـ اجلس!

قالها الاب بجفاف..

وجلس ثامر مطرقاً وحدس الموضوع انه يتعلّق بسوسن.. قال الأب وهو يتأمل ابنه ويحاول أن يكون حديثه هادئاً:

ـ كنت وفيما مضىٰ أفضل لك كلية الهندسة لتصبح مهندساً ويكون لك مستقبل... ولكنك أردت شيئاً آخر.. يا بني أنا والدك وأحبّ لك الخير...

اجاب ثامر بأدب:

ـ لست أشك في ذلك... لكني يا أبي لا أهوىٰ الهندسة ولا...

قاطعه بأسى:

ـ لن نصل الى نتيجة... ثم انه لا طائل من وراء هذا الجدل العقيم... لقد تحدثنا سابقاً دون جدوى.. ان ما يثيرني الآن ان الأمور تجري بالمقلوب... لم أكن لا أصدّق الذي أراه بعيني... لقد رأيت الأعاجيب في هذا الزمن.. امّا أن أرىٰ ابني يُخطب كما تُخطب البنات.. يأتي القريب والغريب لطلب يده فهذا ما لم أكن اتوقعه...

قال ثامر:

ـ يا أبي لكل عصر أخلاقه... والناس أحرار فيما يعملون شرط الّا يتجاوزوا حدود الدين..

ـ والتقاليد والأعراف؟!

ـ محترمة ولكنها ليست مقدسة.

قال الأب بعصبية:

ـ كيف ترضىٰ لنفسك أن تأتي بنت تعرض عليك الزواج؟... انها تبتذل نفسها.. والتي تفعل ذلك لديها استعداد أن تعرض نفسها على آخرين حتى بعد الزواج!

ـ يا أبي هذا تعسّف... لو أن هذا يحط من شأن المرأة ما تزوج سيدنا محمد تلك المرأة التي وهبت نفسها له... ولو كان نبينا يستهجن ذلك ما استقبل تلك المرأة التي قالت له: «زوجني يا رسول الله».

ـ أنت تتحدث عن زمن مضىٰ... الناس في ذلك الزمان يتلقون الشريعة من سلوك النبي... كلمة واحدة تكفي في أن توضح طريق الحق من الباطل... الخطأ من الصواب... امّا زماننا فتحكمه التقاليد والأعراف الاجتماعية.. ان ما فعلته تلك البنت يتنافىٰ مع الحياء الذي يجب أن تتحلى به الفتاة...

ـ الفتاة انسان... ليست سلعة تباع وتشرىٰ وديننا أعطىٰ المرأة حقوقاً متساوية... ألم تعرض السيدة خديجة فكرة الزواج من سيدنا محمدﷺ؟!

ـ قلت لك لا تحدثني عن زمن النبيﷺ نحن لا نعيش في زمان النبي حتىٰ يمكننا أن نتصرف هكذا!

ـ السنا مطالبون بالاقتداء بسنته..

ـ ان ما حصل كان استثناءً والقاعدة كانت أن يتقدم الرجل لخطبة المرأة... هذه هي الأصول.

ـ ولكن ما حصل كان مشروعاً وإن لم ينسجم مع التقاليد...

قال الأب في ضيق:

ـ معنى كلامك إنّك راض عن تصرّف تلك الفتاة المعتوهة؟

ـ ان ما أريد قوله هو أنها لم تفعل شيئاً يستدعي الغضب.

ـ هل تعلّمت في الجامعة الجدل مع الآباء والعناد؟!

ـ إن أمرتني بالسكوت فسأسكت...

ـ اسمع جيداً... اذا تقرر زواجك فانك ستتزوج

حسب الأصول... وما يتحدث الناس عنه من تغيّر الزمان حدّه الى عتبة الباب هل فهمت؟...

❀ ❀ ❀

# 17

في الطريق الىٰ مستشفىٰ دار الشفاء في قلب المدينة اشترت سوسن صحيفة الصباح... شدّها مانشيت صغير يقول: القاء القبض على اعضاء في عصابة لنشر المخدرات في المدارس الاعدادية...

قرأت التفاصيل باهتمام.. وتوقفت عند اسماء الأعضاء وكان من بينهم سعيد عبد القادر.. وقد ربط التحقيق بين نشاط العصابة واختفاء ثلاث فتيات.

ألقت نظرة على ساعتها... كان هناك متسع من الوقت ريثما يحين الموعد المخصص لعيادة المرضىٰ، من أجل هذا اتجهت الى المتنزّة الذي يقع الى جنب المستشفىٰ.. جلست على أول مقعد صادفها... وهي تنعطف يميناً.

الأطفال يلعبون بفرح، وشمس دافئة تبدّد برودة الشتاء... تصفحت جريدتها.. وكانت العناوين تتخاطف بصرها... شعرت أنها تفتح نافذة على ما يجري في هذا العالم...

مصرع ثلاثة من مجاهدي «كشمير» المحتلة... والقوات الهندية تحرق قرية في ضواحي سرينكار.

اسرائيل تواصل قصفها للجنوب اللبناني...

مصرع الزعيم الشيعي العراقي «آية الله محمد صادق الصدر»... وتظاهرات غاضبة تعم المدن العراقية... وسقوط ما لا يقل عن خمسة وثلاثين من المتظاهرين في مدينة «الثورة» في ضواحي بغداد...

قلق وتوتر في اقليم «كوسوفو» من احتمال هجوم حربي..

تركيا ترفض عروضاً من محامين دوليين للدفاع عن الزعيم الكردي «أوجلان»...

وشباب الجامعات اللبنانية يخترقون الاسلاك الشائكة حول بلدة «ارنون» متحدّين الجيش الاسرائيلي!

لم تكن سوسن لتكترث من قبل وهي تذهب الى

المدرسة بأكشاك الصحافة...

تستهويها في بعض الأحيان مجلات أجنبية تجتذبها الأغلفة فقط... صورة ممثلة جديدة أو زي أنيق... لذا كانت مطالعتها لصحيفة يومية تحولاً في تفكيرها ونظرتها للحياة... كانت تعيش داخل شرنقة من اهتماماتها المحدودة.

وفي كل مرّة كانت صورة ثامر تقفز في خيالها... عندما تستعيد لحظة طرقت باب بيتهم وحوارها مع والدته فانها لا تصدّق!... لقد فعلت ما لا يمكن أن تخبر به حتى جدّتها.. ولكنها باتت تشعر بان ثامر قد اصبح جزءً من تفكيرها... وعندما تسترجع اللحظة التي تعرّفت فيها علية تشعر بان هناك قدراً ما يدفعها في طريق ذلك الشاب..

انها تستطيع أن تجزم أن ثامر هو الآخر قد تأثر بشكل أو بآخر بها... فهو لم يعد ذلك الشاب الذي بدا مرتبكاً لحظة جلوسها قربه وسؤالها عن اسمه!

وانتبهت لنفسها على صوت جاءها من الخلف...

ـ تعال يا بني... لنذهب الى عيادة أختك!

نـهضت متجهة الى المستشفىٰ وأرادت أن ترمي بالجريدة، ولكنها تراجعت... ربما خطر في بالها أن تطلع صديقتها ليلىٰ على خبر العصابة!

ليلى تتجه بوجهها الى النافذة التي تطل على حديقة المستشفىٰ وقد رسم الشتاء لوحته الحزينة بين أشجارها...

سريرها مهجور... لم يأت أحد لزيارتها.. ولم تكن في انتظار أحد.

فجأة ظهرت سوسن وفي يدها باقة ورد اشترتها من محل يبيع الزهور الىٰ جنب باب المستشفىٰ هتفت:

ـ ليلىٰ!

فوجئت ليلىٰ... وغمرتها فرحة... وقبّلت سوسن زميلتها بحب:

ـ هل تشكين ألماً!

أجابت ليلىٰ متظاهرة بالألم؟

ـ نعم! هنا.

وأشارت الى خدها الايسر واردفت:

ـ كانت صفعة عنيفة! ادخلتني المستشفىٰ.

ضحكت سوسن:

ـ هاك خدي للقصاص...

ـ ان حالتي لا تساعد... ولكن عندما أغادر المستشفىٰ سأرد بالمثل! بل سأردّ الصاع صاعين... وسكتت ثم قالت وهي تنظر الى الجريدة:

ـ اصبحت تهتمين بالصحافة... يابنت ذاكري دروسك!

ـ فيها خبر قد يهمّك.

قالت سوسن ذلك وهي تسلّمها الجريدة وتشير الى خبر القاء القبض على أفراد عصابة مخدرات لأغواء فتيات في المدارس الثانوية!

لاحظت سوسن انعكاسات الخبر على وجه ليلىٰ المكدود... تمتمت وهي تحدّق في الكلمات الصغيرة.

ـ النذل قال انها أخته ..

ـ من تعنين؟

ـ سعيداً ذلك الوغد الحقير...

ـ كنت أحسبك ذكية... كيف تسقطين في حبائل هؤلاء الذئاب؟

ـ كنت أمضي في طريقي وأنا أعرف أية هاوية تنتظرني.. ياصديقتي كنت أغرق في حفرة مترعة بالجحيم.. ومع ذلك فقد كنت أرىٰ ذلك أفضل من الحياة في بيت ترمىٰ فيه لقمة الخبز اليّ كما ترمىٰ للكلاب..

ـ كنت أتصوّرك سعيدة... من يرى مرحك يتصور شيئاً آخر..

ـ كنت أحترق لوحدي... كنت أضحك في الظاهر أما في داخلي فقد كنت أبكي.. أعرف أن أحداً لن يصغي الى آهاتي...

وسكتت لحظات... ربما كانت تبكي بصمت... تنظر من خلال النافذة الى بوابة المستشفىٰ فترى الرجال وترىٰ فيهم مصدراً للشقاء.. ترىٰ فيهم وجه أبيها الفظ وسعيد الذي لم يكتف بالتلهي بها، وجرّها الى الادمان على المخدرات بل تعدّىٰ ذلك الى تسخيرها لنشر المخدرات بين فتيات الثانوية... وصرخت في غضب:

ـ لا ...

توقفت تلك الهمهمة والأحاديث الحميمة بين المرضى وذويهم، والتفت الجميع صوب ليلىٰ التي

انتابتها حاله من الهستريا والهياج.. وهمست مريضة اجتازت منتصف العمر: هذه المرّة الثالثة التي تصرخ فيها: لا... كلمة واحدة لا ندري من وماذا تعني بها؟!

وودعت سوسن صديقتها بعينين تفيضان دمعاً وتمتمت بجملة سمعتها من ثامر:

ما جدوىٰ العمر والذين نحبّهم أشقياء...

وعلا صوت سيّارة اسعاف دخلت المستشفىٰ، وهرعت بعض الممرضات الىٰ نقالة رأت سوسن فيها فتاة في العشرين كأنها غارقة في نوم عميق...

# 18

غيوم شتائية رسمت لوحة حزينة في السماء.. وكان ثامر يهيم على وجهه في الشوارع كعادته عندما ينفجر بركان الغضب... حتى عينيه الخضراوين اللتين توحيان بالصفاء والسلام تستحيلان الى نافذتين تطلّان على عالم يموج بالعذاب والألم..

وتمرّ أمام عينيه مواكب بشرية تحمل ولا شك.. خلجات حب، لحظات شوق أمان خضراء، ولوعات حزن.. هكذا الناس... الحياة نهر يتدفق... تتدافع أمواجه... يجري.. ولكن الى أين ... لا أحد يعرف؟!..

وهؤلاء الذين يملأون الشوارع، ويركضون في كل اتجاه هم في الحقيقة هائمون.. يبحثون عن السعادة... وكل يعتقد أنها في الاتجاه الذي يسير! توقف أمام دار

للسينما كانت تعرض فيلماً فرنسياً، وكان عنوانه يكفي أن يجتذب عشرات المراهقين: «مرح في الليل» كان الدور قد انتهىٰ كما يبدو فقد فوجئ بمجاميع من الشباب تتدافع عبر البوابة الصغيرة الجانبية..

وأدرك من خلال نظرة في تلك الوجوه ـ أي مستوى هابط للفلم .. البريق في العيون يطلّ منها عواء الغرائز المجنونة...

لقد هيجتها المشاهد المثيرة فيما يبدو بل ودفعتها في طريق مبتذل.. هناك سياط لا يراها الانسان ولكنها تلهب بقسوة كل ذرة في كيانه .. فيستحيل الجسد الانساني الىٰ ضحية تتلوىٰ تحت وقع سياط لا ترحم...

وتبلغ المأساة ذروتها عندما لا يسمع صيحات الاستغاثة أحد... لقد كان الآباء أبناءً... وفيما مضىٰ كانوا شباباً احترقوا في أتون المعاناة الخالدة.. لكنهم عندما أصبحوا آباءً نسوا أو تناسوا فإذا هم يقفون في مواجهة ابنائهم...

واستعصىٰ فهم هذا اللغز على ثامر وهو يدور في الشوارع، ويشعر ان قدميه باتتا عاجزتين عن مواصلة

السير...

مشكلته انه لا يستطيع النقاش... لا يجرؤ على الاعتراض والرفض... شيء يتأجج في أعماقه كبركان مجنون وقوّة تدفعه باتجاه سوسن... تلك الفتاة التي تفيض حيوية وأملاً... بامكانه أن يستمتع معها... يمكنه أن يختلس لحظات يروي فيها ظمأه.. ولكنّه يرفض ذلك... يرفض ذلك هرباً من الاحساس بالشقاء الذي سيجتاحه فيما لو هبط بعاطفته الى حضيض الحيوانية...

انه يرفض المتعة الجسدية الآثمة لأنه سيفقد حنانه ورقته.. انه يرفضها بهذه الصورة التي قد تحطّم حبّه وانسانيته وكرامته...

الالتحام الجسدي في مثل هذه الظروف سوف يطيح بصرح الحبّ، الذي يجب أن يبقىٰ عاطفة نقية...

اللقاء الجسدي الآثم سوف يغرق النفس في مشاعر بالغة المرارة...

انه بحاجة الى وسائل أكثر انسانية للتعبير عن الحبّ...

كان بركان هائل يتفجّر في أعماق ثامر ذلك الشاب

الذي ينطوي على قوّة هائلة للحب في وجود عـجز مـن اكتشاف طريقة التعبير...

وغمرته حـالة مـدمّرة مـن الغـضب.. وكـان يـعيش لحظات يودّ فيها الموت رغبة في التطّهر والنقاء...

ما يزال يهيم في شوارع المدينة ممعناً في الفرار من تلك السياط الخـفية التـي يسـتشعر وقـعها اللاهب فـي أعماقه الحائرة... هل كان يـحاول تـحطيم جسـده بـهذه الوسيلة التي لا يكتشفها أحد... لمـاذا لم يـجرّب تسـلّق الجبال؟ ولكن هل يقضي عمره هكذا... هل يستحيل الىٰ سيزيف يحمل مدىٰ الحياة صخرة العذاب؟!

لقد قطع مسافات طويلة خلال هيامه وهو لا يدري..

ها هـو يـصل الى حـي هـادئ... اخـتفت فـيه تـلك العمارات الهائلة وتلاشى ضجيج السيّارات...

وبدت له الحياة أكثر صفاءً حتى السـماء شـاع فـيها سكون مهيب بالرغم من تكاثف الغيوم...

انبثق المطر غزيراً... واستحال عليه أن يمكث تحت هذا الرشاش المنهمر، وتلفت حواليه وهو يسرع الخطى عله يعثر على سـقف يـحميه مـن البـلل... فـجأة كـعالم

الاحلام وقعت عيناه على مسجد ابيض صغير... نفس المسجد المخزونة صورته منذ طفولته... وتوهجت في ذاكرته مشاهد ملوّنة... شجيرات الورد التي تحيط حوضاً ضئيل الارتفاع.. تنبثق في وسطه نافورة ماء صغيرة... الزجاج الملوّن في الأبواب الخشبية والشبابيك...

وشعر أن روحه تستحم وكانت رائحة الأرض الطيبة تملأ صدره بشذىٰ الحياة وبكى في صلاته...

انه لم يكتشف الحبّ الّا في هذه اللحظات... حتى انه تساءل في أعماقه... مالذي رأته رابعة العدوية حتى اكتشفت الحبّ الالهي وهي في قلب النار المجنونة؟!

# 19

عندما التقاها كان قد اتخذ قراره النهائي جلسا في نفس المتنزّه الذي تعارفا فيه... كانت منسحبة الى نفسها وكان ثامر هو الآخر يفكر كيف سيصارحها... لقد تغيّرت سوسن كثيراً... انها ليست الفتاة التي التقاها قبل شهور في هذا المكان... الزي الذي ترتديه اكثر حشمة ووقاراً... وكان وجهها المستدير يتألق صفاءاً وظهر وجهها الانساني الذي كان مختبئاً خلف الاصباغ.. انه يشعر الآن باتّجاهها بعاطفة الحبّ... هناك انسجام في تفكيرهما وكلاهما يبحثان عن طريق التكامل...

قالت وهي تتحاشىٰ النظر اليه:

ـ أعرف انني قد تسببت لك في مشكلة دون مبرر.. عندما استعيد تلك اللحظة التي طرقت فيها باب بيتك لا

أكاد اصدق انني فعلت ذلك.. لكنني بت اشعر بالضياع بدونك.. لا أريد أن اتملقك... هذه هي الحقيقة..

نظر اليها.. مشاعر طاهرة تشع من عينيها الواسعتين وتألق مشهد شاعري يحفظه من زمان:

«عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأىٰ عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء كالأقمار في نهر

أصبحت مهمته عسيرة ماذا يقول لها... لقد عاش معركة عنيفة بين عاطفته ونداء الواجب...

بذل جهدا كبيراً ليكسر حاجز الصمت الذي هيمن على المكان:

ـ سأكون معك صريحاً... لا أخفي حبي إيّاك انني أحبك بقدر ما تحبيني وأكثر..

وكادت الكلمات الصادقة تسكرها وهي تصغي الىٰ ثامر الذي بدا انه سيقول شيئاً هاماً:

ـ انني كنت وما ازال اتمنىٰ الزواج منك... ولكن الواجب يدعوني الىٰ أن اسحق على قلبي وأن...

قاطعته بأسى:

ـ التقاليد؟ أليس كذلك؟ لانني انثىٰ يجب أن أنتظر الذي يأتي... الانثىٰ سلعة والذكر تاجر يشتري ويبيع.

ـ لم تفهمي بعد ما أريد!

ـ أرجوك قل ما تريده بسرعة.. لا أحب الموت البطيء ولا يهمني نوع السكين ما دام.. موتي هو الهدف... وعلى فكرة فالموت مذكر.. والحياة مؤنث... الدكتاتور مذكر.. السجن مذكر... الغدر مذكر...

اصيبت سوسن بما يشبه هستريا الغضب.. وكان على ثامر أن يعالج الموقف بنفس الاسلوب فراح يجاريها:

ـ الحياة مؤنث.. الثورة مؤنث... الحرية مؤنث.. والتضحية مؤنث... وفاتن أقدمت على الانتحار...

ـ هبّت من مقعدها وهتفت:

ـ فاتن؟!

ـ نعم ابنة الخالة المسكينة... التهمت علبة اسبرين وحالتها في خطر...

ـ ان عقلي لم يعد يستطيع ادراك ما يجري ما معنى

نداء الواجب؟ التضحية.. الا تحدثني بلغة اتمكّن من فهمها ايها الشاعر؟! لماذا أقدمت على الانتحار؟

ـ لقد فقدت عذريتها.. ولعلّها كانت ترىٰ امها تبكي ليل نهار... أنا أعرف خالتي انها من الجيل الذي يقدّس العفة ويراها تساوي الحياة... وابنتها تربّت في احضانها... فلم تتحمل عذابها وعذاب الآخرين.

ـ الآن عرفت.. سوف تتزوج ابنة خالتك...

سكتت طويلاً كما لو أنها تحاول اكتشاف نفسها تجمعت الدموع في عينيها كغيوم ممطرة ولكنها قالت:

ـ لم اتذوق طعم التضحية الّا في هذه اللحظات انك تكبر في عيني... كلما حاولت الابتعاد... أريد أن أرىٰ فاتنتك... انني اغبطها...

ـ نستطيع أن نذهب معاً... انها في مستشفىٰ دار الشفاء...

ـ ماذا؟!! دار الشفاء؟... عندما ذهبت هناك رأيت فتاة في نقالة... لقد خفق قلبي من أجلها...

ـ ربما تكون هي!!

ـ أصبحتُ أكثر شوقاً لرؤيتها.. كانت نائمة لا تدري ماذا يجري حولها من ضجيج..

عندما وصلا المستشفىٰ... كان كل شيء قد انتهىٰ...الوجوم يعلو الوجوه... ماخلا خالته التي كانت تندب شباب ابنتها.

كل شيء يحترق أمام عينيها أمنيات خضراء... أحلام العذارىٰ الملوّنة... وحلل العرس البيضاء.. كل شيء يحترق ويستحيل الى رماد تذروه العاصفة...

أهذا المستقبل الذي كانت تنتظره؟ أهذا كل ما تمنته أهذا كل ما زرعته بالأمس وما سهرت الليالي من أجله لتجني حصاده هشيماً تبعثره ريح مجنونة؟!

كان المشهد كافياً ليكتشف المرء عمق الفاجعة.. لقد عجز الطب عن انقاذ فاتن...

وانسحبا من المكان... نظر ثامر الى سوسن ونظرت هي اليه لعلهما كانا يريدان رؤية الفجيعة في مرآة الشباب من الذي يتحمّل مسؤولية هذه المأساة؟

لأول مرّة يرىٰ ثامر خالته تغرق أمام عينيه فلا يهبّ لنجدتها... لتبكي ما شاء لها.. لتندب حظها العاثر... الله

وحده سيضيء لها ظلمات الحزن... ويشدّ على قلبها بالصبر..

انسحب ثامر بهدوء دون أن يراه أحد... وتبعته سوسن باستسلام كحمل يتبع راعيه.

# 20

ليس اخطر على الحياة النفسية للشباب من أن يعيشوا في عالم ملوّن يزخر بالخيال والأحلام... لأنهم سوف يصطدمون بالواقع الذي لن يخلوا أبداً من ضعف ونقص وقصور... ولكن مهما بلغت قسوة الواقع فانها لن تحطّم اجنحة الخيال... هكذا خلق الله الانسان... يحلم ولولا الحلم والخيال ما تدفق نهر الحياة...

مضت اسابيع على تلك الحوادث... والشتاء يلملم أيامه الأخيرة غير أن الغيوم ما تزال تغمر السماء كالدخان..

ومن ذلك اليوم لم يلتقيا ولم يسعيا الى اللقاء... محطة الأتوبيس هي التي جمعتهما.. وكانت السماء المثقلة بالغيوم تنث مطراً ناعماً...

لم يتبادلا حديثاً ما... وعندما ترجّلا قرب المتنزّه

كانت سوسن تحاول الّا تبدي استياءها من المطر فانطوت على حزن وهي تسير الى جانب ثامر الذي كان ينظر الى السماء وهي تغسل وجهه.

ـ عندما أتزوج فسوف أرسم لحياتي طريقاً جميلاً.. سوف أقضي الشتاء مثلاً قرب مدفأة وفي ضوء قنديل ـ سأمضي الوقت بمطالعة رواية أو مجموعة شعرية.

قالت سوسن هي تبتسم بود:

ـ ولكن يا صديقي إنّك عندما تتزوج لا تعرف عن زوجتك كيف تريد أن تمضي فصل الشتاء!!

توقف ليقول لها بنبرة جادّة:

ـ الحق معك... الزواج الناجح يتوقف على التنازل عن حالة النرجسية وهي العشق الذاتي.

ـ أنت تتحدث عن أشياء اشعر أنها في قلبي لكني لا استطيع التعبير عنها!

وعندما وصلا مفترق طرق، حيث بدت ممرات مبلّطة، وقد انبثق العشب بينها قال ثامر:

ـ اننا نعيش مثل هذه اللحظات... انظري لقد وصلنا مفترق طرق... انها تشير الى اتجاهات مختلفة... هكذا

الحياة نصل في بعض منعطفاتها الى نـقطة غـامضة ليس فيها قنديل يمكن أن يـضئ الطـريق... طـريق المسـتقبل أدركت ما يرمي اليه:

ـ اننا وحيدون... انظر! المتنزّه مقفر تماماً... يبدو اننا نفكر بـطريقة أخـرىٰ... طـريقة لا يسـتسيغها الآخـرون صحيح اننا أحرار فيما نعمل ولكـن الحـرّية لهـا حـدود تنتهي في حدود الأعراف الاجتماعية.

ـ ولكن هذه ليست حدود انها قيود... والحـرّية فـي رأيي تنتهي عند حدود الدين... هذه هي الحدود المقدسة الوحيدة...

قالت وهي تستعيد وجه جدّتها الوقور.

ـ ولكـــن التـقاليد سـياج يـحمي المـجتمع... هـناك أخلاقيات غريبة دخيلة تأتي مع أمواج الأثير... أخلاقيات تفوق في خطورتها أفتك الفيروسات..

ـ أنا لا أقف من التقاليد موقفاً سلبياً الّا عندما تحاول أن تكون سدّاً في طريق الحياة الانسانية المشروعة..

ليس هناك من يدرك محنتنا أو يقف الىٰ جانبنا... إننا وحيدون كوحدتنا في هذه المتنزّه...

ـ تبدو متشائماً وهذا ما يؤسفني!

ـ لست متشائماً لكني أشعر بالغضب من هذا الواقع!

قالت وهي تنظر الى السماء المخزونة بالمطر:

ـ الواقع في حقيقته مجرّد خيال.. كلّ منا يحمل صورة عما يتصوّره كواقع... انني ما ازال اتذكر المقطع الروائي الذي حدثتني عنه فيما مضىٰ... ذلك الحوار حول المطر... اننا فقط نتحدث عن تفسير للواقع لا حقيقته دعنا ننظر الى ما وراء هذه الغيوم!

نظر اليها بحب واعجاب:

ـ اصبحت تتحدثين بلغة الشعر!!

قالت بتودد:

ـ لقد تعلمتها منك.

سكت لحظات ليقول:

ـ استمعي جيداً لما أقول... إنّ أبي يرفض أن تكون سوسن زوجة لابنه... انه يحمل صورة سيئة عنك...

قاطعته:

ـ ما يهمني هو رأيك!

ـ انني لن انتخب غيرك..

أجابت وقد تأجج صوتها بعاطفة نبيلة:

ـ وأنا لن أرضىٰ سواك..

وساد صمت مهيب حتى سمعا صوت قطرات المطر وهي تتساقط فوق أوراق شجرة كالبتوس فتية قالت سوسن منتشية بحبها الطاهر:

ـ هل نبقىٰ تحت المطر؟!

أشار الى ممر يؤدي الى ربوة فيها مقاعد في ظلال الأشجار:

ـ هيّا بنا... هناك مكان يطلّ على منظر أخّاذ..

وسارا جنباً الى جنب، وقد غمرتهما حالة من الصفاء الروحي.

قالت متسائلة:

ـ لماذا لا نلجأ الى إمام جامع الخلفاء؟! انه أكبر مساجد المدينة! لعلّه يستطيع حلّ مكشلتنا!!

هزّ رأسه موافقاً... لكنه لم يفاجأ باقتراحها... كانت عيناه تسافران عبر المطر في المدى البعيد حيث تلتقي أكوام الغيوم عند خط الأفق.

❀ ❀ ❀

# 21

كان الوقت ظهراً عندماوصلا «جامع الخلفاء»... ولمّا أرادا الدخـول لم يسـمح لسـوسن لأنـها لم تـرتد الزي التقليدي! كانت ترتدي ثياباً عصرية يـتوفر فـيها الغـطاء الشرعي ولكن الرجـل العـجوز بـدا كشـرطي حـدود لا يتساهل في وظيفته!

همست سوسن في اذن ثامر:

ـ اذهب بمفردك واشرح له المشكلة.. سأنتظر..

لم يكن هناك من مفر ودخل ثامر البوابة... قاطعاً في خطى ثابته باحة المسجد حيث بـدت الحـديقة مـهملة.. أدرك ذلك مـن الاعشـاب التـي بـدت كـالأدغال ومـن شجيراتها التي نمت أغصانها في كل اتجاه دون ان تمسها يد البستاني..

وكان صوت الأذان ينطلق من مذياع وضع أمام ميكرفون... فيما تناثر بعض المصلّين هنا وهناك في حرم المسجد المزخرف بالنقوش... ولفت نظره بعض العجزة والطاعنين في السنّ...

جلس رجل الدين وكان بديناً في محرابه غير مكترث بمن يصلّي خلفه.. منتظراً انتهاء الأذان...

تقدم ثامر وقد خامره شعور بعدم الارتياح... كما لو أنه يراجع دائرة حكومية في لحظات العمل الأخيرة...

جلس ثامر متأدباً في حضرته... كان الرجل قد اجتاز الخمسين من عمره، ولاحظ ثامر بعض الشيب الذي لم يتمكن الصبغ من اكسابه لوناً طبيعياً، وشم عطراً أجنبياً ثميناً... ونظر الرجل اليه نظرات مستفسرة وقبل ان يتفوه ثامر بكلمة واحدة، قال الرجل وهو يمشط لحيته الى الأسفل:

ـ الاستفتاء بعد الصلاة... وفي المكتب الخاص... أنت متعلّم؟ لقد وضعنا لافته... ولكن يبدو الّا فائدة في ذلك!

انسحب ثامر متعثراً... وقد انطوى علىٰ استيائه من

هـذه المـعاملة الجـافة! خـاصة مـن رجـل تـفترض فـيه المحبّة..

انتظم ثامر مـع صـفّين مـن المـصلّين وكـان يـؤدّي حـركات الصـلاة لا شـعورياً.. لم يـنفعل مـع ايـحائاتها ورموزها.. فجأة وكـما تـتفتح وردة نـيلوفر فـي الصـباح أضاءت في نفسه كلمة الله:

«ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قـلوبهم لذكـر الله»؟!

سرت في جسمه قشعريرة..

أنه يحفظ من القرآن آيات كثيرة...

لماذا تضئ ذاكرته هذه الآية بالذات؟!...

وفي قنوته مدّ كفيه الى السماء وكانت خلايا جسمه تلين وتذوب وتستحيل الى دموع تنبجس..

وشـهق بـعبرة كسـرت السكـوت البـارد فـي حـرم المسجد الكبير:

انتهت مراسم الصلاة وعندما نهض رجل الدين قال وهو يخطو باتجاه مكتب الافتاء:

ـ على الذي شهق في صلاته أن يعيدها:

تقلئ المصلّون كلماته بلا مبالاة...

فيما تابع ثامر الرجل الذي دخل غرفة كبيرة مفروشة بسجاد ثمين...

تربّع الرجل خلف مكتبه على كرسي دوّار وقال:

ـ والآن هات اسئلتك؟

قال ذلك دون أن يدعو الشاب الواقف أمامه الى الجلوس...

بذل ثامر جهداً جبّاراً لتكون لهجته طبيعية وراح يشرح طبيعة مشكلته، التي هي في الحقيقة مشكلة فتاة تنتظر خارج المسجد ايضاً!

تهدّج صوته لشدّة تأثره.. فهناك شباب حائر ينتظر على مفترق الطرق... انه ينشد حقه في الحياة... السعادة...

وضع الرجل نظارات طبيّة ولم يبد على وجهه أي ردّ فعل وما إن سكت ثامر حتّىٰ قال الرجل البدين:

ـ لا يصحّ العقد الّا باذن ولي امر الفتاة! ثم ان الزواج في هذه السن مخالف لقانون البلاد!

قال ثامر:

ـ ان والدها متزوج من امرأة اخرىٰ... أعني انه لا يعيش هموم ابنته ولا يكترث لها.. وباختصار رفض

صراحة أن يتقدّم شاب بمفرده...

ـ جوابي لن يتغيّر... أنتم الشباب تريدون ما يعجبكم! المريض يراجع الطبيب فيصف له الدواء... أنت تراجعني لتعرف حكم الشرع.. وقد أخبرتك...

وأدرك ثامر أن ما يقوله الرجل أشياء مخزونة في عقله فقط... انها لم تتغلغل في قلبه أبداً... عرف ذلك من جفاف الجمل التي يلوكها.. انها اشبه بالحصىٰ تتناثر من فمه..

ان يعلم الانسان اشياء كثيرة فهذا أمر عادي؛ أمّا أن يتحول العلم الىٰ شعور بالمسؤولية، فهذا جوهر القضية...

قد يصبح طبيب ما حاذقاً في اختصاصه ولكن تحوّل الطبيب الى منقذ أو الى مشرفٍ على طرق التعذيب فهذا أمر يعود الى المخزون الأخلاقي لديه..

ان هذا الذي يتربع على كرسي دوّار ويجلس خلف مكتب فخم هو عالم كبير ولا شك ـ ولكن العلم وحده لن يستطيع أن يهبّ لنجدة انسان يستغيث... الشعور بالمسؤولية الأخلاقية هو الذي يقذف بطوق النجاة الى

الغرقىٰ...

غـادر ثـامر المكـان فـيما تشـاغل الرجـل البـدين بتفحّص بعض الأوراق...

❀ ❀ ❀

# 22

تلقت سوسن الانباء بحزن، وكان غضب في أعماقها قد بدأ يتفجّر وكانت مشاعر ثامر قد تغلغلت في قلبها... كانا يمشيان في رصيف مهجور تقريباً، وقد بدت السماء مثقلة بالغيوم، والجوّ مشحوناً بالصواعق...

مرّ وقت وهما يهيمان دون هدف... نظر الى السماء... وودّ لو يطير الى الغيوم ويحمل معه حبيبته الىٰ الأعالي... الى عالم يرفل بالسلام... ولكن أكوام الغيوم كانت قد ملأت البحيرات الزرقاء الصافية واختفت تلك الشطآن القطنية الحالمة..

ومرّا في طريقهما على سينما «النجوم» وكانت اللافتة الكبيرة «مسرح في الليل» ما تزال تجتذب المراهقين.

ودّ لو يحطّم زجاج السينما اللّمّاع ويمزّق تلك الصوره المبتذلة قال ثامر دون مقدمة:

ـ لقد وصلنا مفترق الطرق.. اننا وحدنا لا يقف الى جانبنا أحد... أما أن يعود كل منا الى حياته يحمل عبئه بمفرده... أو أن نسلك طريقاً مظلماً ترفضه التقاليد... ولا تُعرف له نهاية!!

كانت سوسن تصغي بمرارة.. وصمت... وكان صمتها مدوّياً معبّراً... صمت فيه تمرّد ودموع والتهاب.

ـ «يا رب! حرّرنا من الأغلال التي نصنعها بأيدينا!

يا رب! أنت خلقت القلب وأودعت فيه سرّ الحب... حتى دقاته تخفق نابضة: حب .. حب.

يا رب! فاهدنا صراطك المستقيم وطريقك القويم!

يا رب! ندعوك بآهاتنا ونتضرع اليك بدموعنا!»

فجأة دوّت الغيوم المخزونة بآلاف الصواعق... دوت بالرعود الغاضبة... وقذفت المطر غزيراً...

ولا شعوريا تلفت ثامر حواليه ليأوي سوسن الى سقف يحميها من المطر... رفضت سوسن... وكانت تنظر الى السماء وهي تغسل دموعها... فجأة التمع في ذاكرة

ثامر مشهد المسجد الأبيض الصغير الذي اكتشفه في هيامه ذات مساء .. هتف وقد تألّقت عيناه أملاً:

ـ هيّا بنا الى...

ـ الىٰ أين؟!

ـ الىٰ مسجد صغير في الحيّ الشعبي.. لقد رأيت رجلاً أتوسّم فيه الخير...

استقلّا أول اوتبيس يتجه نحو جنوب المدينة... وكان المطر يرشق النوافذ بعنف.. والرعود تدوّي في الفضاء اللانهائي.. وكانت الشوارع.. البيوت.. الأشجار تغتسل في المياه الطاهرة.

وظهر الحي الشعبي في مشهد أخاذ.. مثل عرائس البحر كانت البيوت المتواضعة تغتسل في المطر... لا شيء أجمل من مدينة تغتسل في المطر!!

كان الوقت أصيلاً... وبدا المسجد الأبيض لؤلؤة تتألق، ومياه الحوض الصغيرة تحتفل بالمطر... وهرعا اليه وكانت سوسن قد بدت منتشية بالمنظر الموحي... ما أبهىٰ هذا المسجد!!

الأضواء تتألق من خلال الزجاج الملوّن...

السكينة تترقرق في جنبات المكان...

وشاب في مقتبل العمر يستقبلهما بود ويرشد سوسن الى المكان المخصص للمصلّيات سأل ثامر وقد ارتاح:

ـ كنت اتوقع أن أجده مغلقاً... فوقت الصلاة لم يحن بعد.

أجاب الشاب:

ـ أبواب المسجد مشرعة ليل نهار.. فالله سبحانه لا يغلق أبوابه في وجه القادمين...

ـ في الحقيقة جئت لمقابلة إمام المسجد... اننا نواجه مشكلة حياتية.

ـ لم يأت بعد... ارشدك الى منزله إن شئت.. فمنزله قريب.

ـ أخشىٰ الّا يكون ذلك لائقاً.

ـ إذا كانت هناك مشكلة، فانه سيسعد لو حلها.. انني أعرفه جيداً!

الخطوات التي قطعوها الى منزل السيد أحمد حسين كانت مصيرية... وكانت سوسن تتوجس الّا تُستقبل في

مثل هذه الظروف، ولكن خطوات ثامر الواثقة كانت تشجعها، وتبعث في روحها الأمل..

كان المنزل هادئاً.. وروح شفافة تغمره بالسلام والدفء...

كان الوجه الذي طالعهما يبعث الطمأنينة في القلب والروح.. والابتسامة المشرقة تذكر بالشمس وهي تشق طريقها بين الغيوم...

تأثرت سوسن لمشهد هذا الانسان، وهو يستقبلها بحرارة كأنه يعرفها منذ زمن بعيد!

وخرجت زوجته لاستقبالها.. شابة في الثلاثين تفيض حيوية.. صافحت سوسن بحرارة ومحبّة كأخت كبيرة.

أصغى السيد أحمد لحديث ثامر بإهتمام... وكانت الكلمات الممزوجة بمشاعر حزن وألم ترتسم على وجه السيد أحمد كمرآة شفافة..

انه يستشعر بركان الغضب القادم... فهذا الجيل لن يتحمّل أعباء الحياة في عالم يعجّ بالشرور...

ربما ينزوون داخل الغرف المغلقة احتجاجاً.. وربما

فـي الحـمامات حـيث تـتنفس الخـيالات... مـختلف الخيالات وتحلق أحلام اليقظة... ولكن الى متى؟

ربما تنفجر غضباً، وتتشظىٰ الأفكـار فـتستحيل الى قبضات مشدودة وصراخ...

هنالك صراع بين ما يتفتّح في طبيعة الانسان، وبـين القهر الاجتماعي في بيئة تتحكم بها تقاليد مجنونة...

والامعان في الكبت ينذر باقترابَ لحظة الانفجار...

قال السيد أحمد في محبّة:

ـ يا أخي! إنّ ما ترنو اليه حق مشروع.. مـا تـرنو اليـه انساني.. وكل انساني هو اسلامي... فالاسلام هو التـفسير الأرقىٰ للانسانية... لكننا كمجتمع مثقل بتقاليد وأعراف... فيها ماهو مفيد ومنسجم مع الفطرة البشرية وفيها ما هـو مخرّب...

ولكنها جميعاً تؤلف الدماء التي تسري فـي حـياتنا الثقافية؛ فالتخلّص من الشوائب لا يكمن في التخلّص من مجموع الدم دفعة واحدة... لان ذلك سيؤدي الى الموت وحينها لن ينفع تزريق دم جديد... والطريق الوحيد هـو ضخ دماء نقية جديدة...

دماء يصنعها الجسم بنفسه بالرياضة والتغذية الصحيحة...

وساد صمت.. وكان السيد أحمد يفكر.. ونظر من خلال النافذة الى السماء ما تزال ترسل غيثها الغزير... ثم أشرقت ابتسامة عذبة وقال:

ـ أين العروس؟

فوجئ ثامر! وغمرته الفرحة... واستحال المنزل الصغير الى خليّة.

ألبست زوجة السيد أحمد سوسن حلّة بيضاء.. وبدأت مراسم العقد ورددت سوسن عن ظهر قلب كلمات قالتها بحياء وارتباك:

ـ زوّجتك نفسي على نسخة من كتاب الله وحج بيته.

وقال ثامر متهدجاً:

ـ قبلت.

ـ وفاحت في فضاء الغرفة رائحة طيبة كرائحة ورود ربيعية... وصافح ثامر رفيقة دربه ـ فيما وضع السيد أحمد منديلاً أبيض علىٰ الكفين المتعانقين:

ـ انها البداية.. وارادتكما هي وحدها التي ستذلل

صـعوبات الطـريق.. الطـريق الىٰ حـياة دافـئة وحب لا يموت.. ليبارك الله طريقكما.. ولتضئ كلماته كل القلوب الحائرة.

ومرّ أكثر من عام على تلك الحوادث... وكان السيد أحمد قد سعىٰ خلال تلك الفترة في اقناع اسرة ثامر ووالد سوسن ولكن دون جدوى وما حـصل ان جـدّة سـوسن حسمت الموقف بـالدفاع عـن زواج حـفيدتها ورتّـبت للأسرة الجديدة عشاً دافئاً..

وكانا يذهبان الى الجامعة معاً...

ثمّ حصل حادث هزّ المدينة بأسرها...

اجتمع مئات الشباب أمام سينما «النـجوم» وراحـوا يمطرونها بالحجارة...

ومزّق الشباب الغاضبون دعـاية فـلم اجـنبي هـابط وعلّقوا مكانها لافتة بيضاء كتب عليها بخط متألق:

«الحبّ عاطفة نقية».

فيما ظهرت لافتات صغيرة تحمل إحداهـا كـلمات غاضبة:

«ايها المنحرفون! لسنا حيوانات».

وقد شوهد بين الشباب ثامر وسوسن وليلىٰ وحتى سهيل وسميرة وعشرات الشباب في الثانوية والجامعة...

كيف حصل ذلك؟! لا أحد يدري... ولكنها إرادة القلب الذي ينبض بالحب والايمان والفضيلة...

لقد تفجّر الغضب المقدس «غضب الشباب».

**شتاء ١٩٩٩**